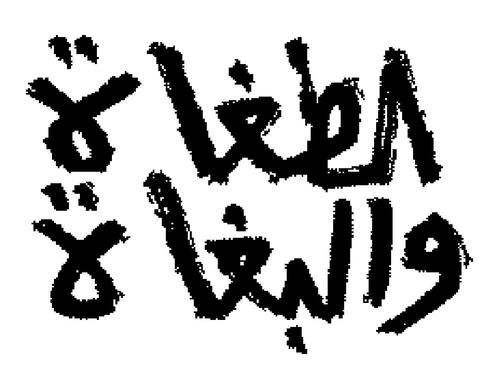
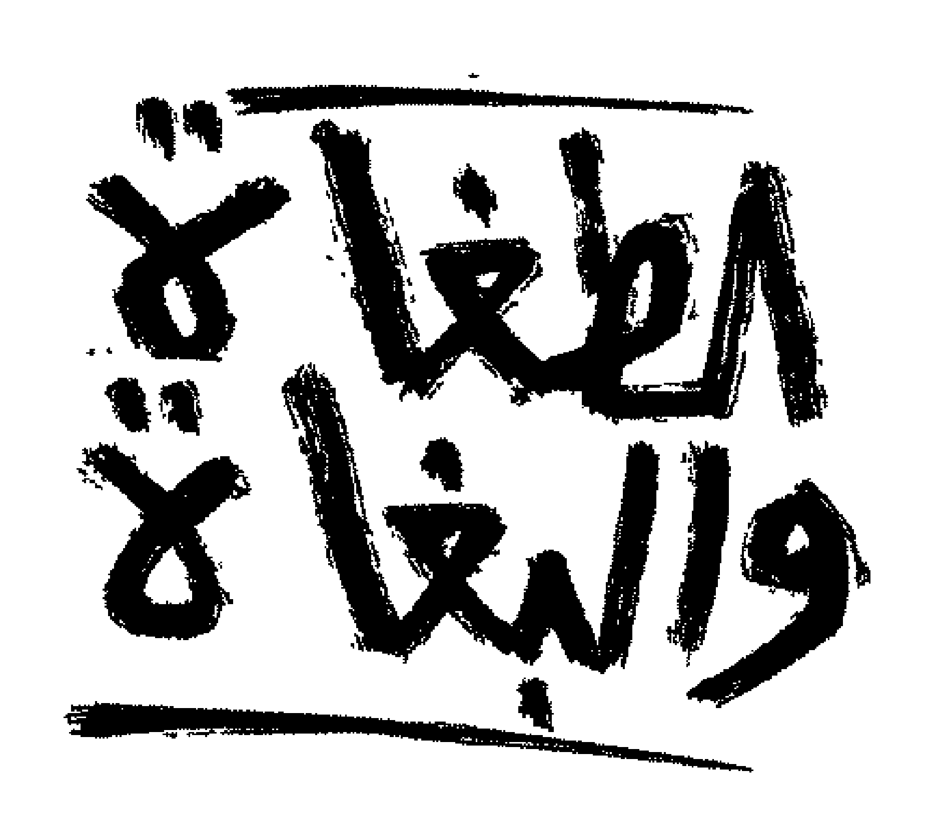

الطغاة
والبغاة

الطبعـــة الأولى
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٤٣٢٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٥٥٥ ـ تلكس SHOROK 20175 LE

جمال بدوى



دار الشروق

الحسين سيد الشهداء

يقول كاتب العربية الأكبر عباس محمود العقاد فى مقدمة كتابه الجليل (الحسين أبو الشهداء) : مسكينة هذه الإنسانية ! . . . لاتزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء . . بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة ، دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات . . الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية فى كل شىء إلا فى ضمير الإنسان وروح الإنسان .

إنها حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الأخبار فى كل عصب من أعصاب الكرة الأرضية ، فلا يضطرب عصب فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى الشمال والجنوب . الوحدة الإنسانية حقيقة واقعية فى كل شىء إلا فى ضمير الإنسان وفى روح الإنسان ، وهذا هو المهم والأهم إذا أريدت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام . . ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال . .

يمضى الأستاذ العقاد فيقول : نتفاءل أو لانتفاءل . . نتشاءم أو لا نتشاءم . . ليست هذه هى المسألة، وإنما المسألة هى أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء. . . ثم يؤكد العقاد قيمة الاستشهاد كضرورة للتقدم الإنسانى، ويرى أنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية، فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته، بل حياته فى سبيلها . .

● لابقاء للإنسانية بغير الاستشهاد . . وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحنى الرؤوس إجلالا لأبى الشهداء . . الحسين ابن على بن أبى طالب رضوان الله عليه .

ولم أجد ، على كثرة ماقرأت فى ملحمة استشهاد الحسين ، أروع من هذه الكلمات التى سطرها الأستاذ ـ العقاد ـ وأنا أتحسس طريقى على استحياء إلى محراب الحسين أتفيأ ظلال الدوحة العظيمة التى غرس بذرتها فى ذلك اليوم الخالد من عاشوراء عام ٦١ هجرية، ثم لم تلبث أن تشابكت أغصانها وتفرعت لتعم الجنس البشرى، ولسوف تمضى القرون والعهود وتظل هذه الدوحة مورقة فيحاء يحتمى بها الإنسان كلما اكتوى بنار الظلم والأثرة والطغيان، وكلما أضناه الشوق إلى نور العدل والحق والإنصاف، ولكن الجديد فى دوحة الحسين أنك لا تجلس فى ظلالها جلوس العاجز البائس المستكين . . ولكن جلوس الفارس الذى يتزود معين العزم والجلد والصبر ثم يستأنف المسير ويواصل الكفاح دون النظر إلى نتيجة المعركة . . خسر أم كسب! عاش أم قتل . . ! فالشهداء لهم حسابات خاصة تختلف عن حسابات العجزة والقاعدين . . وإنما هم

ينظرون إلى بعيد وعلى ظهورهم أوزار قومهم . . وفى قلوبهم هموم الناس جميعا . . ونصب أعينهم اليوم الذى ينتصر فيه العدل . . وينداحر الضلال . . ويسود الحق وينهزم الظلم . . وتتحقق السعادة لهذا الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض فبغى بعضهم على بعض . . واستأثر بالنعمة الأقوياء والطغاة . . وكانت المظالم نصيب الفقراء والمستضعفين .

● نفـر قليـــل :

كان من الجائز أن يقعد الحسين فى بيته منعما مكرما كما قعد غيره . . أو يؤثر الصمت وينشد السلامة كما فعل الأكثرون بعد أن دانت الدنيا لبنى أمية . . وسعى النهازون والوصوليون إلى قصورهم يغرفون من أموال المسلمين بغير حق ، نعم . . لم يشأ الحسين أن يكون من القاعدين ، ومضى إلى قدره غير هياب . . ولا حاسب حساب القوةالجبارة التى سيواجهها بعد حين ، وماظنك برجل يواجه دولة بجيشها وسلاحها وحديدها ونارها . . وليس معه من الرجال سوى نفر قليل! ولكنها المواجهة بين المثل العليا والمبادىء النبيلة فى قوتها ووهجها . . وبين السلطة الغاشمة فى ضعفها وخوائها المتخفى بستار زائف من القوة العضلية . . أو هى المواجهة بين صاحب الحق فى يده سلاح التضحية والإيمان والفداء . . وبين الغاصب الذى يدافع عن منافع دنيوية رخيصة ، فيخسر الأول معركة الفناء ، ويكسب البقاء إلى أبد الآبدين . . ويكسب الثانى معركة الباطل ويخسر نفسه فى سجل التاريخ ، ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذه الكلمة المستنيرة : ليس من أراد الحق فأخطأه كمن أراد الباطل فأصابه . .

ولك أن تنظر الآن إلى النتائج النهائية لهذه المعركة بعد أن انقشع غبارها منذ نحو أربعة عشر قرنا . . ولك أن تسأل نفسك : من الذى كسب؟ ومن الذى خسر؟ وسوف تجد الجواب فى قلوب الملايين التى

عاشت طيلة هذه القرون وهى تلهج بذكر الحسين . . وتلعن يزيد كلما جاء ذكره حتى قالت العامة : إلعن يزيد . . ولا تزيد . .

نعم . . أين قتلة الحسين فى صحائف التاريخ . . ؟ هل تُحسُّ منهم من أحد أو تسمعُ لهم ذكرا . . ؟ هل تسمع عن عبيد الله بن زياد أو شمر ابن ذى الجوشن أو عمر بن سعد . . أو . . أو . . من هذه العصبة الباغية التى فقدت عقلها وضميرها وروحهاوتطاولت على ابن بنت رسول الله فحزت رأسه ووطئت ظهره وبطنه بخيلها وسرقت ثيابه ومتاعه وتركته فى العراء . . ثم عادت إلى سيدها تقبض ثمن شجاعتها وفروسيتها ! ! أو قل ثمن نذالتها وخستها ! ! لن تجد ذكر واحد من هؤلاء الأوغاد إلا مصحوبا باللعنات ، مقرونا بالازدراء . . ثم . . أين الحسين من هذا كله؟؟ إنك تراه فى معانى العدل والشرف والتضحة والشجاعة والفداء والفروسية وقد تحول إلى رمز لكل هذه القيم النبيلة . . تراه فى بطولات الشهداء الذين تأسوا به وساروا على دربه واسترخصوا الدنيا من أجل المثل العالية . . وهانت عليهم الحياة الفانية شوقا إلى حياة المجد والخلود . . نراه فى صدور المناضلين الذين يؤرقهم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ويؤذيهم الاستبداد والطغيان فيهبون لإزالة هذه التشوهات التى تقبح وجه الإنسانية وتجعل الحياة كئيبة سقيمة . .

هكذا فعل الحسين وهو يرى بنى أمية يزدادون عتوا وغرورا . . ويمشون على رقاب البشر دون اعتبار لتلك القيم العظيمة التى جاء بها الإسلام . . لقد عادوا إلى جاهليتهم واستعادوا التقاليد التى كانوا عليها قبل أن يدخلوا الإسلام مجبرين يوم الفتح ، يقول سيد أمير على فى كتابه (روح الإسلام) : ومع ارتقاء معاوية الخلافة عاد حكم الأوبجاركية ـ الأقلية ـ الوثنية السابقة ، فاحتل موقع ديمقراطية الإسلام ، وانتعشت الوثنية بكل مايرافقها من قلاعات وكأنها بعثت من جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقى لنفسيهما متسعا فى كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام .

● الصراع الجديد :

لقد استأنف الأمويون صراعهم القديم ضد بنى هاشم تحت مظلة الإسلام مثلما كان تحت مظلة الجاهلية، وكانت الحلقة الأولى من هذا الصراع العلنى فيما جرى بين رأس البيت الهاشمى أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ورأس البيت الأموى معاوية بن أبى سفيان وما كان بينهما فى صفين وفى غير صفين. . ثم كانت الحلقة الثانية من الصراع فيما كان لابد أن يحدث بين الحسين بن على وبين يزيد بن معاوية الذى جاء عليه الدور ليرث الحكم بمقتضى ذلك الإجراء الدخيل الذى ابتدعه معاوية حين فرض على الناس أن يبايعوا يزيد وليا لعهد أبيه، وفى شهر رجب سنة ٦٠هـ هلك معاوية. . وقفز يزيد إلى العرش. . وعندئذ تحرك الحسين ليواجه الحاكم الجديد الذى يفتقر إلى الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها خليفة المسلمين. . فلم يكن يزيد على شىء من بعض الصفات المحمودة التى كانت لأبيه أو لأجداده من السادة الأمويين، وإنما جاء يزيد فى أعقاب السلالات ـ أو عكارة البيت كما يقول العامة فجمع أسوأ الخلال، ولم تجمع الروايات على شىء كإجماعها على إدمانه الخمر، وشغفه باللذات، وتوانيه عن العظائم، حتى أصيب بمرض الكبد من إدمان الشراب والإفراط فى اللذات وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب القرود والكلاب، فكان له قرد يدعوه « أباقيس» يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة، ويحضره مجالس الشراب، ويركبه أتانا ـ حمارا ـ فى السباق ويحرص على أن يراه سابقا مجليا على الجياد . .

● البيعــة :

هل كان من الممكن لرجل هذه صفاته واهتماماته أن يكون خليفة للمسلمين؟

لاشك أن هذا السؤال ورد على خاطر الحسين بن على ، وهو فى المدينة بعد أن تلقى نبأ وفاة معاوية ، وكان يعلم جيدا أن الحاكم الجديد لن يتركه حتى ينتزع منه البيعة ـ الاعتراف بخلافته ـ مع النفر الذين أبوا على معاوية البيعة ليزيد وهم : الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير . فكتب الخليفة الجديد إلى أميره على المدينة ـ الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ـ رسالة يبلغه فيها بنبأ وفاة معاوية ومعها رسالة أخرى ـ سرية ـ كأنها أذن فأرة ، كما وصفها المؤرخون ، يطلب إليه فيها «أن يأخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا . . » وفى ذلك الحين كان الحسين وابن الزبير فى المسجد عندما حل عليهما مندوب الأمير يطلب إليهما المثول عنده ، فقالا له : انصرف الآن . . وسوف نأتيه . . ومكث الحسين وابن الزبير يخمنان سبب الدعوة ، فقال الحسين : إنى أرى أن طاغيتهم ـ يقصد معاوية ـ قد هلك ، فقال ابن الزبير ، وأنا ما أظن غيره ، ثم نهض الحسين فأخذ معه مواليه وذهب إلى بيت الإمارة وقال لمواليه : إن سمعتم أمرا يريبكم فادخلوا . . فسلم على الوليد وجلس ، وعنده مروان بن الحكم ، فناوله الوليد كتاب يزيد الذى ينعى فيه معاوية ، فاسترجع ـ يعنى قال إنا لله وإنا إليه راجعون ـ وقال : رحم الله معاوية ، وعظم لك الأجر . فدعاه الأمير إلى البيعة ، فقال له الحسين : إن مثلى لايبايع سرا ، وما أراك تجتزئ منى هذا . . ولكن إذا اجتمع الناس دَعَوْتنا معهم فكان أمرا واحدا . . فقال له الوليد وكان إنسانا كريما يؤثر العافية ـ انصرف على اسم الله حتى تأتينا فى جماعة . . فقال مروان : والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرنّ القتل بينكم وبينه . . فاحبسه ولا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربتُ عنقه . . فنهض الحسين ، وقال : يا ابن الزرقاء أنت تقتلنى؟! كذبت والله وأثمت ! ! ثم انصرف الحسين إلى داره . فقال مروان للوليد : والله لا تراه بعدها أبدا . . فقال الوليد : : والله يامروان ما أحب أن لى الدنيا وما فيها وأنى قتلت الحسين . . فسبحان الله ! ! اقتل حسينا إن قال لا أبايع؟

والله أني لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة . .

● جبهـة المعـارضـة :

وغادر الحسين المدينة إلى مكة، وكان عبد الله بن الزبير قد سبقه إليها . . وصارت مكة موطنا لجبهة المعارضة، وبدأت من هناك الأحداث تسير فى طريقها المحتوم نحو المواجهة بين يزيد ومعارضيه الذين رفضوا البيعة له . وأخذت تتوافد رسل المعارضين لحكم بنى أمية من العراق على الإمام الحسين تدعوه إلى الذهاب إلى الكوفة ليقود منها حركة المعارضة ضد بنى أمية، وسارت الأحداث تترى نحو كربلاء . . وهى أحداث لابد أن تعايشها حتى منتهاها ، وقد ورد ذكرها فى كل كتب المؤرخين الأوائل مثل الطبرى وابن الأثير، ولكنى اخترت لك ماذكره الإمام المفسر المؤرخ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ فى كتابه الشهير « البداية والنهاية» . .

وسجل فيه تفاصيل المأساة التى أودت بحياة الحسين . على النحو التالى :

● وقد كثر وُرُودُ الكتب عليه من بلاد العراق يدعونه إليهم ـ وذلك حين بلغهم موت معاوية وولاية يزيد . ومصير الحسين إلى مكة فراراً من بيعة يزيد ـ فكان أول من قدم عليه عبد الله بن سبع الهمدانى ، وعبد الله ابن وأل ، معهما كتاب فيه السلام والتهنئة بموت معاوية، فقدما على الحسين لعشر مضين من رمضان من هذه السنة، ثم بعثا بعدهما نفراً منهم قيس بن مسهر الصداتى، وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكواء الارحبى، وعمارة بن عبد الله السلولى، ومعهم نحو مائة وخمسين كتابا إلى الحسين، ثم بعثوا هانىء بن هانىء السبيعى وسعيد بن عبد الله الحنفى ومعهما كتاب فيه الاستعجال فى السير إليهم، وكتب إليه شبث بن ربعى، وحجار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعمرو بن

حجاج الزبيدى، ومحمد بن عمر بن يحيى التميمى: أما بعد فقد اخضرت الجنان، واينعت الثمار، ولطمت الجمام، فإذا شئت فأقدم على جند لك مجندة، والسلام عليك.

● فاجتمعت الرسل كلها بكتبها عند الحسين، وجعلوا يَسْتَحِثُّونَهُ، ويستقدمونه عليهم ليبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، ويذكرون فى كتبهم أنهم فرحوا بموت معاوية، وينالون منه ويتكلمون فى دولته، وأنهم لما يبايعوا أحدا إلى الآن. وأنهم ينظرون إلى قدومك إليهم ليقدموك عليهم.

● فعند ذلك بعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب إلى العراق، ليكشف له حقيقة هذا الأمر والاتفاق، فإن كان متحتما وأمراً حازماً محكماً، بعث إليه ليركب فى أهله وذويه، ويأتى الكوفة ليظفر بمن يعاديه، وكتب كتابا إلى أهل العراق بذلك. فلما سار مسلم من مكة اجتاز بالمدينة فأخذ منها دليلين فسارا به على برارى مهجورة المسالك، فكان أحد الدليلين منهما أول هالك، وذلك من شدة العطش، وقد ضلوا الطريق فهلك الدليل الواحد بمكان يقال له المضيق، من بطن خبيث، فتطير به مسلم بن عقيل، فتلبث مسلم على ما هنالك ومات الدليل الآخر فكتب إلى الحسين يستشيره فى أمره، فكتب إليه يعزم عليه أن يدخل العراق، وأن يجتمع بأهل الكوفة ليستعلم أمرهم ويستخبر خبرهم.

● فلما دخل الكوفة مسلم نزل على رجل يقال له مسلم بن عوسجة الأسدى، وقيل: نزل فى دار المختار بن أبى عبيد الثقفى، فالله أعلم.

● فتسامع أهل الكوفة بقدومه فجاءوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين، وحلفوا له لينصُرُنَّه بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليها، فقد تمهدت له البيعة والأمور، فتجهز الحسين من مكة قاصداً الكوفة، كما سنذكره.

● وانتشر خبرهم حتى بلغ أمير الكوفة النعمان بن بشير خبره رجل بذلك ، فجعل يضرب عن ذلك صفحا ولا يعبأ به . ولكنه خطب الناس ونهاهم عن الاختلاف والفتنة وأمرهم بالائتلاف والسنة . وقال : إنى لا أقاتل من لايقاتلنى، ولا أثب على من لايثب على، ولا آخذكم بالظنة ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لئن فارقتم إمامكم، ونكثتم بيعته لأقاتلنكم مادام فى يدى من سيفى قائمته .

● فقام إليه رجل يقال له عبد الله بن مسلم بن شعبة الحضرمى فقال له : إن هذا الأمر لايصلح إلا بالغشمة، وإن الذى سلكته أيها الأمير مسلك المستضعفين فقال له النعمان : لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأقوياء الأعزين فى معصية الله .

● فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يعلمه بذلك، وكتب إلى يزيد عمارة ابن عقبة وعمرو بن سعد بن أبى وقاص ، فبعث يزيد فعزل النعمان عن الكوفة وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة وذلك بإشارة سرجون مولى يزيد بن معاوية، وكان يزيد يستشيره فقال سرجون: أكنت قابلا من معاويةما أشار به لو كان حيا؟ قال : نعم! قال : فاقبل منى فإنه ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد . فوله إياها .

وكان يزيد يبغض عبيد الله بن زياد وكان يريد أن يعزله عن البصرة، فولاه البصرة والكوفة معا .

الحسين عند مفترق الطرق

غادر الإمام الحسين مدينة جَدِّه ﷺ إلى بيت الله الحرام حتى لايجبر على مبايعة يزيد بن معاوية وحتى لا يسبب حرجا لأمير المدينة الذى تلقى أمرا بانتزاع البيعة من الحسين، ولكنه تورع أن يمد يده بسوء إلى ابن بنت رسول الله ﷺ وقد وجد الحسين نفسه، ومعه نفر قليل من أبناء الصحابة عند مفترق طريقين: فإما الإذعان لسلطة غاشمة فرضت عليهم بقوة السلاح، والاعتراف بحاكم فاسد لاتجتمع فيه خصال الحق والكمال ، وإما الخروج إلى مكة لعل الله يجعل لهم فيها مخرجا . . وربما انفسحت لهم فيها فرصة التفكير الهادئ . . وهل فى الهجرة من ملام؟ألم يهاجر رسول الله من مكة إلى المدينة اتقاء لبطش الطغاة من سادة قريش؟ فلماذا لا يهاجر ابن بنت رسول الله من المدينة إلى مكة اتقاء لبطش الأوغاد من أحفاد عبد شمس! ألم ينهض القرآن بالناس كى يرفضوا الذل والعار والاستضعاف ولو أدى بهم الأمر إلى الهجرة فى بلاد الله الواسعة . . . فالمهم أن يأبى الناس الظلم ولا يركنوا إلى الذل ولا يجعلوا من الضعف ذريعة للتهرب من المسئولية ، وإنما عليهم أن يرفعوا لواء المقاومة .

وتحت شعار المقاومة التقت إرادة الحسين مع إرادة الصفوة المباركة من أبناء الصحابة وقد جمعت بينهم أستار الكعبة . .

وتسامع الناس فى الأمصار بنبأ خروج الحسين فكان له أعمق الأثر . . ولكن أثره كان كبيرا فى الكوفة عش التشيع لأهل البيت ومكمن الثورة والانقضاض على السلطة الأموية . . وتوالت على الحسين رسائل شيعته

فى الكوفة يستحثونه على القدوم إليهم ليقود نضالهم، فبعث إليهم سفيرا على درجة عالية من الكفاءة والثقة هو ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليستطلع له الأمر ويمهد له الطريق إلى هذه البقعة التى تمور بالمقاومة وتتشوق إلى الخلاص من مظالم بنى أمية . . وكان شأن الحسين فى مكة وابن عمه فى الكوفة كشأن السيد المسيح وابن خالته يوحنا المعمدان ـ نبى الله يحيى بن زكريا ـ وقد سبقه إلى دنيا الناس مبشرا وداعيا . . وجمع بينهما الشبه فى البداية والنهاية ، والتف أهل الكوفة حول مسلم بن عقيل يستحثونه على مقدم الحسين . . والتف الناس فى مكة حول الحسين وهم بين ناصح شفيق . . ومتربص داهية . . أما المشفقون فقد خافوا على الحسين أن يخذله أهل الكوفة كما خذلوا أباه وأخاه من قبل، وأن ينصرفوا عنه بعد أن يفتر حماسهم، ويفل عزمهم، وأما المتربصون فقد وجدوا فى رحيل الحسين إلى العراق فرصة للتخلص من هذا الثائر العنيد حتى يخلص لهم أمر الحجاز، ويخلو لهم الجو لتحقيق أحلامهم فى الزعامة.

ما أكثر الروايات التى تحدثنا عن إشفاق المخلصين، وفى طليعتهم الرجل الصالح عبد الله بن عمر بن الخطاب . . ومنهم أيضا راوية الحديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذى هو من الحسين بمنزلة العم . . فهو ابن عم أبيه وأحد أساطين الدوحة الهاشمية ، والرجل الذى حنكته التجارب والمحن وخاض غمار المعارك إلى جوار ابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى صراعه العنيف مع معاوية بن أبى سفيان ، وقد رأى بعينيه انصراف أهل الكوفة عن أميرهم على بن أبى طالب ، ورأى بعينيه خذلانهم لابنه الحسن وعدوانهم على سرادقه وسرقتهم لمتاعه . . وخشى أن يجرى للحسين ماجرى لأبيه وأخيه . . أما نصائح ابن عمر فقد كانت من منطلق الدين والخوف من الفتنة التى هى ملازمة لعمليات الانقضاض والثورة . . فهو من المدرسة التى تؤثر الصبر على

الحاكم الجائر حتى يهديه الله أو يريح منه الناس، ولكن الحسين كان قد اتخذ قراره بعد أن وَقَر فى وجدانه أنه لامجال لمساومة أو مهادنة مع الحاكم الجديد، وأن المجابهة مع الطغيان قد أصبحت أمرا محتوما . .

وما أكثر الروايات التى تحدثنا عن تحريض الخبثاء للحسين كى يذهب إلى حتفه فى العراق ويخلو لهم طريق الزعامة . يقول أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه (مقاتل الطالبيين) عن عبد الله بن الزبير: ولم يكن شىء أثقل عليه، من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعا فى الوثوب بالحجاز، وعلم بأن ذلك لايتم إلا بعد خروج الحسين، فقال له : على أى شىء عزمت يا أبا عبد الله؛ فأخبره برأيه فى إتيان الكوفة، وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل إليه، فقال له ابن الزبير: فما يحبسك، فوالله لو كان لى مثل شيعتك بالعراق ماتلومت فى شىء . وقوى عزمه، ثم انصرف.

● لاتخـــرج :

وقال ابن كثير فى (البداية والنهاية) إن عبد الله بن عمر قال للحسين ولعبد الله بن الزبير أثناء انصرافهما من العمرة: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما فى صالح مايدخل فيه الناس، وتنظران فإن اجتمع الناس عليه فلم تشذَّا وإن افترقوا عليه كان الذى تريدان.

وأنت ترى من هذا أن ابن عمر كان يضع وحدة الأمة فوق كل اعتبار، وكان يخشى من افتراق كلمتها وانفصام وحدتها ويرى تأجيل المواجهة إلى مابعد البيعة العامة حيث تعلن الأمة رأيها الجماعى ، فإن قبلت إمارة يزيد ، كان على المعارضين أن يخضعوا لرأى الجماعة، وإن رفضت لم يكن فى الخروج ملام.

وفى رواية أخرى أن ابن عمر قال للحسين: لاتخرج فإن رسول الله ﷺ

● **يوم عاشوراء :**

وما إن أشرقت شمس السبت المشئوم ـ العاشر من المحرم ـ حتى تهيأت الفئتان للقتال ، وأطل الحسين على أعوانه ، وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، وامتطى الحسين فرسه ، وأخذ مصحفا فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعا يديه ، بينما وقف عمر بن سعد في مواجهته ومن ورائه أربعة آلاف رجل أو يزيدون من جند العراق . . وتقاربت الفرسان وخيم الصمت على المكان فلا يسمع سوى وجيب القلوب وهى تخفق إشفاقا على هذه الفئة القليلة التى تخوض معركة غير متكافئة ، ورفع الحسين يده فعلم الناس أنه سيتكلم . فتسمرت الخيل . . وسكنت الألسنة ، واشرأبت الأعناق ، ونادى الحسين : أيها الناس . . اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم ، فإن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم علىّ سبيل ، وإن لم تقبلوا منى « فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون » . . «إن وَليىّ اللهُ الذى نزّل الكتابَ وهو يتولى الصالحين» . . ثم أخذ يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، لعل القوم يراجعون أنفسهم قبل أن تتلاحم السيوف وتتقاطر الدماء ، فقال : راجعوا أنفسكم . . وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتالُ مثلى !! وأنا ابن بنت نبيكم وليس على وجه الأرض ابن بنت نبىّ غيرى ؟ وعلىّ أبى ؟ وجعفر ذو الجناحين عمى وحمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ وقال لى رسول الله ﷺ ولأخى : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت الكذب . . أما تتقون الله . ! أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى ؟

ولم تصب كلمات الحسين شيئا من قلوب أعدائه وقد صدأت . . وتمكن منها الحقد والغل حتى لم تعد تسمع . . ولاتعى . . ولا تحس . . ولا تشعر . لو كانت الصخور هى التى تسمع كلمات الحسين لذابت

رقة وحنانا . . ولكنه قلب الإنسان حين يصيبه العفن فيصير أشد قسوة من الصخر . .

وعاد الحسين يعرض على القوم حلا لإنهاء الأزمة قبل أن يستفحل الأمر وتراق الدماء، قال لهم : أيها الناس . . ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض . . ولكن الاقتراح لم يعجبهم، لأنهم لايريدون دون رأسه بديلا . . ولا يريدون له أن يفلت من أيديهم، فقالوا له وهم يعرفون الجواب مسبقا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك؟ يريدون منه أن يعترف بخلافة السكير الرعديد يزيد بن معاوية وأن يشترى حياته بالثمن البخس فيعيش ـ إن عاش ـ ذليلا . . فما سمعوا منه إلا أن تلا قول الله مستعيذا « إنى عُذتُ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب» ثم ألقى إليهم بسهمه الأخير فقال : أخبرونى . . أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته؟ أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاصة من جراحة؟ إنه يخاطبهم بلغة الشرع . . ويسألهم : هل قتلت لكم أحدا فتريدون منى دمه؟ أو سرقت منكم مالا . . أو جرحت لكم شخصا فيحق على القصاص؟

● الخيانة :

كل هذا والقوم صامتون . . لا يتكلمون . . ولا يردون عليه . . فهم لا يريدون حوارا . . ولكن يريدون دماء . . لقد جاءوا من الكوفة ليعودوا إلى ابن زياد برأس الحسين . . ففيم الكلام «!!» وتلفت الحسين إلى صفوف أعدائه فلمح فيهم أشخاصا من الذين قد بعثوا إليه برسائل تتفجر حماسا ويطلبون منه القدوم . . ما لهم الآن قد انتقلوا إلى الجانب الآخر، مالهم قد تنكروا لوعودهم ومبادئهم، أى قوة ـ بل أى ضعف ـ ينتاب النفس البشرية فيجعلها تنتقل من صفوف الخير والفضيلة وتنضوى تحت لواء الرذيلة والفساد؟ هل هى المنفعة؟ هل هو الخوف؟ هل هو اليأس من

انتصار الحق على الباطل فيلقى الإنسان بنفسه فى الهاوية كما يفعل المنتحرون؟؟

نادى الحسين على هؤلاء الذين استقدموه ثم خدعوه: ياشبيث بن ربعى، ياحجاج بن ابجر، ياقيس بن الأشعث، يازيد بن الحارث.. ألم تكتبوا إلىّ أنه قد أينعت الثمار، واخضر الجناب، فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة؟؟

ثم قال: يا أيها الناس، إن قد كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم.. وهنا تكلم أحد هؤلاء الخونة المخادعين فقال: ألا تنزل على حكم بنى عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب؟ فقال له الحسين: لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد «!!».

يالعظمة الإنسان حين تتفتح له طاقة الإفلات من الموت فيسدها فى كبرياء لأنه يشم منها ريح الذل، فما اتعسها حياة يعيشها الكريم تحت رحمة غاصبيه، وما أهونها حياة يشتريها العظيم بكرامته، وما أهون الموت تحت ظلال السيوف.

لقد انتهى زمن الحوار.. ولم يبق إلا أن تتكلم السيوف.. ولكن قبل أن يؤذن المؤذن بالقتال، وقع مالم يكن فى الحسبان.. فهاهو أمير المقدمة فى جيش ابن زياد يتقدم بفرسه من جيش الحسين ليعلن اعتذاره وانضمامه إلى صف الحسين، إنه الحرّ بن يزيد الذى تفاعلت فى نفسه كلمات الحسين فتحركت شجونه، وشعر بضميره يؤنبه وهو يرى التعنت والصلف والغرور يتجلى فى صفوف ابن زياد، ويرى الحسين يعرض عليهم العودة من حيث أتى فيأبون إلا إذلاله، فيعتذر الحر إلى الحسين من تعسف قومه ويقول: لو أعلم أنهم على هذه النية لسرت معك إلى يزيد، ويقبل منه الحسين العذر، ويلتفت الرجل إلى عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد مخاطبا إياه: ويحكم ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله ﷺ

مايعرضه عليكم . . ويسمع الحر بن يزيد همهمات أصحابه وهم يلومونه على انضمامه إلى صف الحسين، فيقول لهم: والله إنى أُخَير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا اختار على الجنة غيرها، ولو قُطِّعت وحُرِّقت . . ثم قال : يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل «!!» أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عَدَوتُم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه إلى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لايمنع فيها الكلب والخنزير، وحُلتم بينه وبين الماء الفرات الجارى الذى يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صرعهم العطش؟ بئس ما خَلَفْتم محمدا فى ذريته، لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه . .

● أول ســهم :

وكانت خطبة الحر بن يزيد آخر الكلمات قبل أن يتكلم السلاح . . وتقدم عمر بن سعد وقد شمر عن ساعده ورمى بسهم وقال : اشهدوا أنى أول من رمى القوم!! وكأنما خاف ابن سعد أن يشى به عيون ابن زياد بأنه تخاذل عن قتل الحسين، فأراد أن يشهد الجميع على إقدامه«!!» وبرز من خلفه فارسان يصيحان: هل من مبارز؟؟ فخرج لهما من صفوف الحسين فارس مقدام هو عبد الله بن عمير فَجَنْدَلهما بضربة من سيفه، وأصابته ضربة أطارت أصابع يسراه .

ودارت رحى المعركة . . أو قل المذبحة . . فهى أدق وأصلح، وقضى الفريقان سحابة النهار فى المبارزة، وكان النصر حليف أصحاب الحسين لقوة بأسهم، ولكونهم مستميتين لا عاصم لهم إلا سيوفهم، وانتقل جند ابن زياد من المبارزة إلى التلاحم، وسقط مسلم بن عوسجة فكان أول من قتل من أصحاب الحسين، فمشى إليه الإمام وترحم عليه وهو يلفظ

النفس الأخير، وقال له حبيب بن مطهر: أبشر بالجنة، فقال مسلم بصوت خفيض: بشرك الله بالخير، ثم قال له حبيب: لولا أنى أعلم أنى على إثرك لاحقك، لكنت أقضى ماتوصى به، فقال له مسلم: أوصيك بهذا ـ وأشار إلى الحسين ـ إلى أن تموت دونه .

واشتدت حمية القتال ، وحمل قائد الميسرة شمر بن ذى الجوشن ـ أخس وأحقر من عرفت البشرية ـ على الحسين فدافعت عنه الفرسان دفاعا عظيما، وكافحوا دونه مكافحة بليغة، حتى تساقطوا جميعا واحدا إثر واحد، وشهيدا بعد شهيد. وخلا الجو لإبليس ليقضى وطره، أجل قاد إبليس كتيبة الإعدام فى صورة الأبرص الملعون شمر بن ذى الجوشن فحمل حملة على أهل بيت الحسين فقتل الصبية حتى لم يبق منهم سوى ابنه العليل على زين العابدين وقد احتمته عمته زينب بكل جسدها فارتاع القوم ونأوا عنه، ثم إن شمر بن ذى الجوشن صاح فى شياطينه وهو يشير إلى الحسين وقد أعياه القتال فجلس على باب فسطاطه. ويحكم.. ما تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم!! فقال لهم الحسين: ويلكم.. إن لم يكن دين وكنتم لاتخافون يوم المعاد فكونوا فى دنياكم أحرارا وذوى أحساب.. امنعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم . ولكن المجرمين أحاطوا به من كل جانب، فانتضى الحسين سيفه وأخذ يجول فيهم يمينا وشمالا وهم يتنافرون عنه كما تتنافر الكلاب من الأسد ، وخرجت زينب من خبائها وهى تصيح فى عمر بن سعد : ياعمر. أرضيت ان يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟ فما كان منه إلا تساقطت الدموع من عينيه حتى خضبت لحيته، ولكنه لم يحرك ساكنا وأشاح بوجهه عنها، وعندئذ هجم الملعون زرعة بن شريك التميمى بسيفه فضرب الحسين على كتفه اليسرى ومزق عاتقه، ثم انصرفوا والحسين ينوء ويكبو بذراعه الجريحة.. ثم جاء إليه الملعون سنان بن أبى عمرو بن أنس النخعى فطعنه برمح فوقع فنزل الجزار وذبح الحسين وحز

رأسه ودفع بها إلى خولى بن يزيد . .

وهنا سكنت الريح . . وخشعت الأصوات . . وانفضت المعركة بعد أن تحقق الغرض منها . . وعاد الجزارون إلى سيدهم فى الكوفة وفى يدهم رأس الحسين . . أما جسده فقد وجدوا به ثلاثا وثلاثين طعنة ، ولم يغادر القوم أرض كربلاء حتى وطئوا بخيولهم جسم الحسين حتى ألصقوه بالأرض .

استشهاد أم انتحار

هل أخطأ الحسين أم أصاب حين خرج من بيته وحيدا أعزل ليواجه دولة بجيشها وخيلها وجبروتها؟ هل أخطأ حين أغلق أذنيه عن نصح الناصحين له بعدم الخروج إلى العراق؟ هل أخطأ لأنه لم يحفل بالقوة القاهرة التى لاتقاس إليها قوة الصحبة المعدودة من أهل بيته والنفر القليل من الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه؟ هل أخطأ إذ لم يخضع حركته لموازين القوة المادية وحسابات الكر والفر والمكسب والخسارة . . وماعسى أن يلقاه من بطش الجبارين المتعطشين إلى الدماء؟

هذه القضية كانت ولم تزل ـ مثار جدل بين المؤرخين والباحثين فى طبيعة النفس الإنسانية حين تتغلب عليها فكرة الاستشهاد فتستهين بالموت وتهزأ بالحديد والنار وتسخر من الجبابرة، ولاتعبأ بالنتيجة العاجلةللمعركة؛ لأن الشهداء لايتعجلون الثمن وإنما يجنون ثمار جهادهم فى الأمد البعيد، ولكن من المؤرخين من يرى أن الحسين قد جانبه الصواب حين خرج بالطريقة التى خرج بها، ويرى أن مافعله الحسين كان انتحارا وليس استشهادا . أما البعض الآخر فيرى فى خروج الحسين على طغيان دولة الأمويين مثلا أعلى فى البطولة والفداء . .

فالبطل حين ينوى التمرد على الظلم والفساد لايحسب حسابا للقوة التى سيواجهها . وإنما عليه أن يقول كلمته ويرفع لواء المقاومة أيا كانت نتيجة المواجهة، لقد خرج ليستشهد . . ولم يخرج ليساوم أو يفاوض أو

يقامر على المبادىء النبيلة التى امن بها . . ولقد اختلفت الآراء حول خروج الحسين، وتباينت هذه الآراء بين الحكم على الحسين بالصواب أو الخطأ . . ولست فى هذا الحيز المحدود أملك القدرة على أن أعرض عليك آراء هؤلاء وأولئك، ولكنى سأكتفى بأن أعرض عليك نموذجا لآراء كل من الفريقين: المؤيدين والمعارضين وسأترك لك حرية الاقتناع بأى منهما . .

وسوف أبدأ برأى المعارضين ويمثلهم أستاذ للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة هو المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك صاحب المؤلفات القيمة فى التشريع الإسلامى وأصول الفقه، وقد ألقى سلسلة من المحاضرات على طلاب الجامعة المصرية فى تاريخ الأمم الإسلامية وجمعتها إدارة الجامعة فى مجلدين كبيرين، وقد تعرض الخضرى لحركة الحسين فى محاضراته. وبعد أن انتهى من سرد الأحداث التى انتهت بكارثة كربلاء قال :

« بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة (كربلاء) التى أثارهاعدم الأناة والتبصر فى العواقب، فإن الحسين رمى بقول مشيريه جميعا عرض الحائط، وظن بأهل العراق خيرا، وهم أصحاب أبيه، فقد كان أبوه خيرا منه وأكثر عند الناس وجاهة ، وكانت له بيعة فى الأعناق، ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى فى آخر حياته الخلاص منهم، أما الحسين فلم تكن له بيعة، وكان فى العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر، فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد، وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه! هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبى طالب! وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما فى خروجه هذا الذى جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا، وقد أكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لايريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها . .

ثم ينتهى الشيخ الخضرى إلى التبسيط الشديد فى تفسير دوافع ثورة الحسين فيقول : غاية مافى الأمر أن الرجل ـ الحسين ـ طلب أمرا لم يتهيأ له ولم يعد له عدته، فحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه، وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يُبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا .

ثم يختتم الخضرى بك تحليله هذه الأحداث الهائلة بإحالتها جميعا إلى الخالق عز شأنه ليحكم فيها بما يراه، فكان شأنه فى ذلك شأن «المرجئة» الذين أراحوا أنفسهم من الحكم على الباغى وأرجئوا الحكم كله إلى يوم النشور، يقول الشيخ الخضرى : لقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على مافعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة : وهى أنه لاينبغى لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك، كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لايُحتمل، وعسف شديد ينوء الناس بحمله، أما الحسين فقد خالف على يزيد وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف . . » .

● ظلم الحسين :

هذا الرأى الذى عرضته عليك يعبر تعبيرا دقيقا عن مدرسة الفقهاء التى ترى أن القعود خير من الخروج ، وأن السكوت على الحاكم الظالم أرحم من الانتفاض عليه، وأن الخروج على الجور لايصح إلا إذا توفرت له ضمانات النجاح، ولابد أن يكون الظلم بيّنا ظاهرا ينوء الناس بحمله(!!) .

وأنت ترى من كل ذلك ما تحمله هذه الآراء من خطر على كرامة الأمة وروحها المعنوية، فضلا عما فيها من تحامل وتجن على الحسين، فالإمام الشهيد لم يكن سببا فى فرقة المسلمين كما يظن الشيخ الخضرى، والحسين

برىء من هذه التهمة براءة يعرفها قراء التاريخ، فالانقسام بين المسلمين حدث إبان خلافة عثمان رضى الله عنه وتطور تطورا دراميا أثناء خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ومن الظلم أن يزعم زاعم أن حركة الحسين كانت سببا فى زعزعة ألفة الأمة الإسلامية «إلى يومنا هذا» . . وإنما تعود هذه الزعزعة إلى عشرات ومئات العوامل التى صنعتها أحداث وظروف لا صلة للحسين بها. ومن الغريب أن يتحامل الشيخ الخضرى على المؤرخين والكتاب الذين يناصرون حركة الحسين باعتبارها حركة مشروعة فى عرف الدين والسياسة والأخلاق. ويصف الشيخ هؤلاء المناصرين بأنهم يريدون إشعال الفتن وزيادة نار العداوة تأجيجا، وهو نفس المنطق الذى يردده حكام العصر حين يصفون كل حركة معارضة بأنها هدامة وأنها تسعى إلى تقطيع أواصر الأمة والإخلال بالأمن . . وكأن ما تسمعه فى بلاغات وزارة الداخلية صدى لهذا الرأى الذى تردد فى مدرجات الجامعة المصرية القديمة فى أوائل هذا القرن . .

على أى حال . . لن أمضى طويلا فى مناقشة هذه الآراء التى أدانت حركة الحسين، وسأترك الرد لأصحاب الرأى الآخر الذين يرون فى خروج الحسين أمرا محتوما حتى تظل ينابيع الخير والشرف والنبل والسمو تفيض بعطائها على المجتمعات الإنسانية، وحتى تظل النفس الإنسانية على ثقة من انتصار الخير واندحار الشر ولن يتم ذلك إلا على دماء الشهداء . . فالتقدم الإنسانى رهين بظهور هذه الفئة من الرواد والأبطال والشهداء . . وبدونهم تتحول المجتمعات البشرية إلى غابات تمرح فيها الوحوش الكاسرة . . وينمحى فيها صوت الحق والعدل والحرية .

● أبو الشـــهداء :

ووجهة النظر التى تناصر حركة الحسين يمثلها خير تمثيل عملاق الفكر الإسلامى عباس محمود العقاد . . وإليك شهادته كما سجلها فى كتابه «الحسين أبو الشهداء» :

« خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لايسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية.. لاتتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها ـ إن أصابت ـ من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولايأتى الخطأ فيها ـ إن أخطأت من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه، وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين»..

«هى حركة لايأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق.. هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة.. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال..

« وهى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة، ولا وسيلة متوسل يتزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره.. فإن قبلته الدنيا قبلها، وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه.

«هى حركة لاتقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لايتكرر ولايستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان.. ولاننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين قد انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطئته فى كل شىء، وتصويب مقاتليه فى كل شىء. فالقول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة،

والتماس العذر له معناه إلقاء الذنب عليها ، وليس بخاف على أحد كيف يُنسى الحياء وتُبتذل القرائح أحيانا فى تنزيه السلطان القائم ، ونأثيم السلطان الذاهب ، فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه إذن بالأمر الذى يرجع فيه إلى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء» .

وأنت ترى من هذا أن العقاد يرفض أن يحكم على حركة الحسين بمقياس المكسب أو الخسارة الذى يلجأ إليه المغامرون وأصحاب الصفقات قبل الإقدام على مغامرة أو صفقة ، وإنما يستخدم العقاد منهجه التقليدى فى تفسير الأحداث على ضوء البواعث النفسية للبطل حيث يفعل مايفعل استجابة لنوازع دفينة فى نفسه . ودون اعتبار للظروف الخارجية التى تحيط به . ويضيف العقاد إلى هذا الباعث النفسى عاملا آخر هو النتائج التى أسفرت عنها حركة الحسين ليحكم - فى النهاية - بصواب الحسين حين خرج من مكة إلى العراق ليواجه دولة الظلم والجبروت . . وإليك أسانيد العقاد فى هذا الحكم :

« نعم . . أصاب الحسين إذا نظرنا إلى الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة . .

وأنت حين تسأل عن هذه البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين حين أزمع الخروج على يزيد بن معاوية يجيبك العقاد قائلا : هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل مافعل ، ولاتدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع ، وخير لبنى الإنسان ألف مرة أن يكون فيها خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الإنسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد .

حكام متألهون

إذا دخل الاستبداد من الباب، هربت الحرية والكرامة والأمن وحقوق الإنسان من النافذة، لأن الاستبداد لايدخل وحده، وإنما يصحبه الإرهاب والبطش والترويع، عندئذ يتحول الناس إلى كائنات هلامية، حسبهم من الحياة أن يعيشوها فى سكون، وأن ينتهى بقاؤهم فيها دون أن يمسهم طائف من العذاب. إنها حياة أشبه بحياة القطيع ليس فيها من النشاط الإنسانى سوى إشباع الغرائز، أما إشباع العقل وغذاء الروح والارتقاء بالتفكير . فكلها أنشطة تخضع لسيطرة المستبد الذى يسعده أن تتحول الرعية إلى إمعات معدومة الشخصية، تميل حيث تميل الريح . . ولا تسبح أبدا ضد التيار .

عبر أمير الشعراء : أحمد شوقى عن حالة الانهيار النفسى التى تصيب الإنسان تحت ضغط الخوف فى مسرحيته الشهيرة (مجنون ليلى) فى اعتراف أحد أنصار الإمام الحسين بأنه يخفى حبه للحسين خوفا من الإرهاب الأموى فقال :

إذا الفتنة اضطرمت فى البلاد ورمت النجاة فكن إمعة

أحب الحسين ولكنما لسانى عليه وقلبى معه

حبست لسانى عن مدحه حذار أمية أن تقطعه

وكانت (أمية) تقطع الألسنة إذا باحت بذكر على بن أبى طالب

وأبنائه، رغم أن علياً وأبناءه خسروا معركة الحكم، وقفز معاوية وأنصاره على مقدرات الدولة الإسلامية وجعلها ملكا عضوداً وراثياً فى أبنائه خلافا لمبدأ الشورى الذى قرره الإسلام، ورغم أنه كسب المعركة وأصبح السيد الفرد الذى لايشاركه فى حكمه أحد، إلا أنه كان يخشى الرأى العام، ويعلم جيدا أن الناس لن ينسوا فضائل على وأبنائه، فأمر الخطباء أن يسبوا علياً على المنابر. فكان الخطيب بعد أن يفرغ من خطبة الجمعة يدعو المصلين إلى سب (على) كرم الله وجهه، فكانت ألسنتهم تقول (آمين) بينما قلوبهم تدعو إلى (على) بالرحمة والرضوان جزاء ما جاهد وأبلى فى سبيل الإسلام.

ولم يكن كل الناس يسايرون حكام بنى أمية فى خطتهم الخبيثة لتلطيخ سمعة (على) وأبنائه، صحيح أنه كان هناك شعراء منافقون، وخطباء مرتشون يمدحون ملوك بنى أمية. ولكن كان إلى جانبهم أحرار بواسل رفضوا الانحراف بنظام الحكم من الشورية الديمقراطية إلى الاستبدادية الشمولية، لنذكر على سبيل المثال حجر بن عدى وأصحابه الخمسة الذين وقفوا فى العراق وقفة الأبطال، وأبت عليهم نفوسهم الكريمة أن يعلنوا كلمة التأييد لما فعله معاوية، فما كان من والى العراق إلا أن بعث بهم مكبلين فى الأغلال إلى الشام ليحكم عليهم معاوية بالموت بلا محاكمة.

● الأحنف :

ولاننسى الأحنف بن قيس سيد بنى تميم، الذى كان إذا غضب، غضب لغضبته مائة ألف من قومه.. لايدرون لما غضب (!!) وكان يجمع خصال السيادة والشرف من حنكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان، وذلاقة اللسان، وقد شهد (صفين) إلى جانب على بن أبى طالب، ولكن تطورات السياسة دفعته

بعد ذلك إلى الاعتراف بالنظام الجديد الذى أنشأه معاوية، وعندما سأله معاوية عن رأيه فى ابنه يزيد وهو يستطلع آراء الصفوة فى استخلافه لم يتردد فى أن يصارح معاوية بما يعلمه عن يزيد. وقال له : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعمله لله رضا ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة».

وأنت ترى فى هذا الكلام مجاهرة بالرأى فى رفض استخلاف يزيد، وتمضى الأيام. . وتستقر الأمور لمعاوية، ولاينسى أن الأحنف كان يقف فى الجبهة المعادية أثناء موقعة صفين، وفى نفس الوقت يعلم أن الأحنف لديه من الشجاعة والجرأة مايحرج معاوية إذا خرج عن حدود اللياقة فى معاملة الأحنف، وبينما كان معاوية والأحنف يتسامران أراد معاوية أن يسترجع الماضى لعله يحظى من الأحنف بكلمة اعتذار عما كان منه يوم صفين، فقال له حذرا: « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى. . » فما كان من الأحنف إلا أن انتفض قائلا : « والله يامعاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا . . وإن السيوف التى حاربناك بها لفى أغمادها . . وإن تدن من الحرب فترا ندن شبرا . . وإن تمش إليها . . نهرول إليها . . » فما كان من معاوية إلا أن تراجع . .

وذات مرة طلب معاوية من الأحنف أن يصعد المنبر ليسب علياً. وتمنع الأحنف، وتشبث معاوية. . فقال الأحنف: إذن أصعد لأقول ما يمليه على ضميرى لا أخرج عنه. . فسأله معاوية: وماذا ستقول: قال: سأقول أيها الناس. . ألا إن علياً ومعاوية قد اختلفا. . وقد طلب منى أمير المؤمنين أن ألعن عليا. . فالعنوه. . وعليه لعنة الله والناس والملائكة. . فقال معاوية : ولكنك لم تفصح؟ قال الأحنف: والله لا أزيد ولا أنقص . . فسكت معاوية.

● ضمير عمر :

وقد ظلت جريمة سب (على) على المنابر طوال عهد بنى أمية ، ولم تتوقف إلا فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز . . ويبدو أن هذه الجريمة كانت تؤرق ضميره منذ صباه . . ويقول فى ذلك : « كان أبى يمر فى خطبته يهزها هزا . . حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على تتعتع (أى تعثر وتلجلج) وتحدثت إلى أبى فى ذلك فقال لى : أوَ أدركت ذلك منى يابنى ؟! اعلم يابنى أن العوام لو عرفوا من على بن أبى طالب ما نعرفه ، لتفرقوا عنا إلى ولده » .

وتفهم من قول عبد العزيز بن مروان إلى ابنه عمر أن حكام بنى أمية كانوا يدركون جيدا أن الرعية تميل بهواها نحو على ، وأنها تشعر بأن أمية اغتصبت الحكم اغتصابا . . ولما تولى عمر الخلافة ألغى السب وطلب من الخطباء أن يجعلوا مكانه الآية الكريمة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون» ولاتزال هذه السنة الحميد جارية حتى يومنا هذا . .

وقد امتن الهاشميون لعمر بن عبد العزيز هذا الموقف الكريم ، وذكره الشريف الرضى فى قصيدة قال فيها متوجها بها إلى حيث يرقد عمر فى دير ابن سمعان :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أمية تبكيتُك
أنت أنقذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك
غير أنى أقول إنك قد طبت ولم يطبْ ولم يزكُ بيتُك
دير سمعان لا عدتك العوادى خير ميت من آل مروان ميتُك

● احتقـار الرعيـــة :

ولو تابعت خطب العرش التى كان يخطبها حكام بنى أمية منذ معاوية بن أبى سفيان فسوف تلمس فيها هذه النعرة الاستعلائية التى تحتقر الرعية ولا ترى لها رأياً أو حقا فى تولية الحاكم . . وعندما ذهب معاوية إلى مدينة الرسول عام ٤١هـ بعد أن امتلك الأمر، صعد المنبر وخاطب الناس بهذه الكلمات التى تنم عن البغض الكامن فى نفسه تجاه الرعية، لأنه يعلم أنها تبادله بغضا ببغض ، وبأنه ماتولى الخلافة إلا على كره منهم، ثم يكشف لهم عن عزمه على مجالدتهم بالسيف حينا . . وبالدهاء حينا . . ثم يحذرهم من الخروج عليه، وإنه لن يحفل بالأقاويل والشتائم التى يطلقونها عليه شفاء لما فى نفوسهم نحوه . . وإليك نص الخطبة :

« أما بعد : فأنى والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم، ولامسرة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة، ولقد رضت (يعنى مرنت) لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة (يعنى الصديق) وأردتها على عمل (عمر) فنفرت من ذلك نفورا شديدا، وأردتها على سينات (يعنى سنوات) عثمان، فأبت على، فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة : مواكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدونى خيركم، فإنى خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لاسيف له، وإن لم يكن إلا مايستشفى به القائل بلسانه، فلقد جعلت ذلك له دبر أذنى ، وتحت قدمى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاد يثرى، وإذا قل أغنى. وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة» .

وقد سار كل حكام بنى أمية ـ باستثناء عمر بن عبد العزيز ـ على هذا المنوال فى التهديد والوعيد والشتم وسب الرعية، حتى أن عتبة بن أبى سفيان عندما جاء إلى مصر ليتولى حكمها سنة ٤٣هـ كانت خطبته قطعة

من السباب، فوصم المصريين بأنهم ألأم الناس، وأن فسادهم يستشرى ولا علاج لهم إلا تقطيع السياط على ظهورهم، فإذا نجح السوط اكتفى به، وإلا فلا مفر من السيف، ثم يجنح إلى توبيخ المصريين لأنهم لم يعوا المواعظ، ويهددهم بأنه لن يتردد فى عقابهم بأفظع وسائل الانتقام . .
وإليك نص الخطبة :

« يا حاملى الأم أنوف ركبت بين أعين، إنى قلمت أظفارى عنكم ليلين قسى لكم، وسألتكم صلاحكم إذا كان فسادكم باقيا عليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتنقص للسلف، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسَمْتُ أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم فكم من حكمة لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى» .

ويبدو أن عتبة بن أبى سفيان كان يطوى بين جوانحه بغضا شديدا لأهل مصر، فتراه يكرر فى خطبة أخرى نفس عبارات التهديد والترويع :

« يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا، فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان، لاتصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق، بإحياء الفتنة وإماتة السنن، فأطأكم لله وطأة لا رمق معها، حتى تنكروا منى ماكنتم تعرفون، وتستخشنوا ماكنتم تستلينون» .

● **البتـراء :**

ومن أشهر خطب التهديد والترويع خطبة زياد بن أبيه المعروفة بالبترا لأنه لم يستهلها بحمد الله على النسق الدينى المعمول به منذ ظهور الإسلام . ويقول الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه (أدب السياسة فى العصر الأموى) بأن الباعث على ترك الحمد فى خطب زياد ورسائله، أنه لم يكن من الذين أشربت قلوبهم الدين، وامتزج بنفوسهم القرآن، ولم يكن

حريصا على أن يقتفى ماسنه المسلمون من قبله فى الافتتاح بما يشعر بالانقياد لله . على أنه لايمنع من ذلك أن الشذوذ فى هذا الافتتاح المفاجئ يوحى للسامعين بالصرامة والغلظة ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد، الذى لا يتورع عن التنكيل والتقتيل . .

ولأن الخطبة (البتراء) طويلة فسوف أجتزىء لك منها هذه الفقرات التى تبث الخوف والفزع فى نفوس السامعين :

« حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم . .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا على قلبه، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى لا يظهر من أحد منكم خلاف ماعليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ـ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا .

وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى . . » .

والتهديدات الفاجرة التى نطق بها جبار بنى أمية زياد ابن أبيه، تذكرك بالعبارات الساقطة التى كان يفوه بها جبار السجن الحربى، حمزة البسيونى، عندما كان يهدد أسراه بأنه سيهدم السجن الحربى على رؤوسهم ولن ينقذهم من براثنه ملائكة الرحمن، ولو هبطوا من السماء

فسوف يضعهم فى الزنازين . . بل قال ماهو أفظع وأشنع مما يعف القلم عن سرده تقديسا واحتراما للذات العلية «!!» .

● أدب الإســـلام :

ويعلق الدكتور الحوفى على خطبة زياد بقوله : إنها تنبىء عن اجتراء على عقوبات لم يسنها الدين، لأن زيادا ـ كما سبق القول ـ لم يكن من المتدينين، ولأنه ينطبق مع ما قاله على بن أبى طالب لأنصاره يوم صفين : إن القوم ليسوا أهل قرآن ولا دين، فهو ينذر أهل العراق بأنواع من العقاب غريبة عجيبة، كأنما هو المشرع، أو كأنما هو غير مقيد بأحكام الإسلام، ذلك أن الإسلام لايعاقب بالإحراق من حرق دارًا كما توعد زياد، ولا يجزى بالإغراق من غرق ناسًا كما هدد زياد، ولايجيز دفن المسلم حيا فى القبر الذى نبشه كما أوعد زياد، ولاينقب قلب الذى ينقب جدارًا للسرقة مثلما أنذر زياد، ولايأخذ السيد بجرم عبده، ولا البرىء بالمتهم، ولا يعاقب على الظنة والشك، وإنما شرع الإسلام عقوبات معينة لهذه الجرائم وأمثالها، وحرص على العدالة ودرء العقاب بالشبهة، لهذا اعترض على زياد أبو بلال مرداس وقال له : الله سبحانه وتعالى يقول : « وإبراهيم الذى وفى، ألا تزر وازره وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى» .

ويضيف الدكتور الحوفى : إن فى الخطبة البتراء ترفعا على المحكومين وصبغة استبدادية، وادعاء سلطة سياسية لايقرها الإسلام، فهو يعلن أنه سيسوسهم بسلطة من الله خولها بنى آمية، وسيدافع عنهم بأموال الدولة التى أعطاهم الله إياها، وهو يعلم والسامعون يعلمون أن الله لم يخول بنى أمية سلطانا، ويعلم ويعلمون أن الله لم يملك بنى أمية أموالاً، وإنما دعا الإسلام إلى الشورى، وجعل مال المسلمين للمسلمين، وما الحاكم إلا خازن أمين على هذا المال، وقيم على إنفاقه فى وجوه الخير ونفع الشعب .

ابن جلا .. قاهر العراق

منذ الصدر الأول للإسلام والعراق يشتعل بالفتن والحروب، لأسباب ترجع إلى تركيبته السكانية التى تفتقد الانسجام، وتتميز بالتنوع، ففيه العرب الذين انتشروا فيه بعد الفتح، وفيه الفرس سكانه الأقدمون، وفيه السريان النصارى، واليهود، والآشوريون والصابئة وغيرهم، ولكل طائفة دينها ومذهبها ومدارسها استنادا إلى المظلة الإسلامية التى تمنع الإكراه فى الدين، وبهذه الأعراق المتنوعة ، والمذاهب المتنافرة، صار العراق متحفا بشريا وتاريخيا يضم أشتاتا من الأجناس والأديان والفلسفات والعقائد، تنافست فيما بينها لإثبات ذاتها، ولم يلبث التنافس أن تحول إلى صراع من أجل البقاء مما جعل من العراق مسرحا للفتن والثورات والاضطرابات بصورة لم يكن لها نظير فى غيره من الأقاليم الإسلامية.

وجاءت الفتنة الأولى، بعد مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فاجتذب العراق كل أطراف الصراع، فقد ذهبت إلى البصرة عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير حيث أعلنوا الانشقاق على الخليفة الجديد على بن أبى طالب الذى سايرهم فى الانتقال إلى العراق، ونقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة، وكانت بين البصرة والكوفة واقعة الجمل، ثم كان الصراع الدامى بين أهل العراق تحت رآيه علىّ، وأهل الشام تحت لواء معاوية. وقد انتهى الصراع باغتيال الإمام وفوز معاوية وقيام الدولة الأموية، ورغم ذلك بقى العراق شوكة فى جنب معاوية، منه تنطلق

أصوات الفتنة ، وفيه تتخمر حركات الثورة، وبقيت هذه الحركات فى حالةكمون طوال حياة معاوية بسبب دهاء سياسته وقوة شكيمته، حتى إذا هلك كشفت قوى المعارضة عن وجهها، وخلع أهل العراق بيعة يزيد، وبعثوا إلى الحسين يحثونه على الذهاب إليهم، ولكنهم خذلوه وخانوه، وكانت النهاية المعروفة فى كربلاء، وشعر أهل العراق بالندم على غدرهم بالحسين فظهرت حركة (التوابين) لتظهر الندم على خيانة الحسين وتطلب الثأر لدمه، ثم كانت حركة (المختار) الثقفى للوفاء بنفس الغرض، وتصفية المجرمين الذين قتلوا الحسين، ولكنه انحرف، ودخل بدعوته فى متاهات وخزعبلات عقائدية حتى لقى حتفه على يد مصعب بن الزبير، وكان مصعب قد بسط سلطان دولة الزبيريين على إقليم البصرة، ولكن العراقيين خانوه، وكاتبوا الخليفة عبد الملك بن مروان يطلبون منه القدوم، فسار عبد الملك إلى العراق على رأس جيش كبير، والتقاه جيش مصعب بن الزبير، وكان النصر له فى البداية إلى أن دارت عليه الدائرة، ومازال مصعب يقاتل حتى قتل . . وبعدها واصل الخوارج الثورة على دولة بنى أمية .

أراد عبد الملك بن مروان أن يؤدب العراقيين تأديبا شديدا، فرماهم بالحجاج لعلمه بأنه الرجل المناسب فى المكان المناسب، وأنه كفيل بفرض الإرهاب والعنف مثلما فعل فى مكة مع عبد الله بن الزبير. ولأنه من أجرأ الولاة إسرافا فى سفك الدماء، ولأنه قادر على بث الفزع والرعب فى نفوس الناس، حتى ليذكره أحدهم فى الليل، فما يأتيه النوم حتى يصبح ، وإذا كانت الكوفة قد شهدت نماذج من هؤلاء الطغاة، إلا أنها لم تشهد واليا عليها فى مثل صرامة الحجاج وعنفه وطغيانه، يغضب فى مجلسه فلا يبقى أحد فى المجلس إلا ركبته الهموم، وارتعدت فرائصه، وتحسس رأسه حتى يتأكد أنها لاتزال قائمة .

مضى الحجاج إلى العراق سنة ٧٥هـ وهو يضمر فى نفسه الشر،

ويعتزم التنكيل بأهله تنكيلا شديدا، وسلك فى ذلك سبيلا لم يسبقه فيه أحد وهو زرع الهلع فى نفوس الناس منذ لحظة اللقاء الأول حتى يعرف الجميع أن عهدا جديدا قد بدأ، وأن هذا العهد الجديد ليس فيه مكان للرحمة أو الرأفة أو التهاون، ولكنه سيكون حافلا بالقسوة والغلظة، مترعا بالدماء، فمضى لتوه إلى مسجد الكوفة وقد غص بالناس لرؤية الوالى الجديد، وكلهم شغف للقائه، ولو علموا ماوراء هذا اللقاء لاحجموا عنه ولزموا بيوتهم إيثارا للسلامة.

ارتقى الحجاج المنبر وقد غطى رأسه بعمامه كبيرة أخفت ملامح وجهه، ومكث الحجاج جالسا على المنبر وقد دس رأسه بين كفيه حتى خيل إلى الناس أنه راح فى سبات وهم بعضهم أن يقذفه بالحصى ليصحو، وتعالت من بعض أرجاء المسجد همهمات الهزء والسخرية من هذا الرجل الغريب الأطوار، وساد القوم شعور بالدهشة، حتى إذا أحس الحجاج أنه بلغ المراد فى إثارة فضول الناس، انتفض من مكمنه كما ينتفض الفهد من رقاده، فإذا بالجرذان تفر من حوله مذعورة، وقف الحجاج منتصبا وسدد إلى القوم نظرات تقدح بالشرر، ثم خلع العمامة حتى بدت ملامح وجهه فانخلعت القلوب من الصدور، وصاح الحجاج صيحة زلزلت لها جدران المسجد، وإذا به يقدم نفسه إليهم بهذا البيت من الشعر القديم:

أنا ابن جلا وطلاَّعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

هل كان الحجاج مخرجا مسرحيا يعرف أصول الحبكة الدرامية، ومواقع التأثير فى الجمهور(؟!).

فالرجل لم يفتتح خطبته بحمد الله كما تقضى أصول الخطابة فى العرف الإسلامى، وإنما بدأها بهذا البيت الغريب من الشعر الذى يحمل لهجة التهديد الصريح، وأحاط نفسه بهذه الهالة من الغرابة والغموض حين

غطى وجهه بعمامة ، إحياء لتقليد عربى قديم يقضى بلبس العمامة عند إعلان الحرب وطلب الثأر . فهو يعلن منذ اللحظة الأولى أنه جاء محاربا وطالبا لثأر . وهاهو يخلع العمامة ، ويكشف عن وجهه حتى يعرف الجميع أنة الجبار الذى لاينام على ثأره . وأنه القادر على اجتياز ثنايا الجبال، وطلوع المسالك الصعبة الوعرة التى يتجنبها الضعاف والكسالى . .

وبهت الناس لهذه البداية المفجعة التى تطفح بالتهديد، وتملكتهم الدهشة حتى انحبست أنفاسهم ولم يعد يسمع إلا صوت هذا الجبار يتوعدهم بالويل والنكال، ولم يترك لهم الحجاج فرصة لالتقاط الأنفاس، وإنما عاجلهم بكلمات كانت أشبه بطلقات مدفع رشاش . . .

«يا أهل الكوفة . . إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ، إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق، مايُقعقعُ لى بالشنان ، ولايُغْمزُ جانبى كتغماز التين ، ولقد فررْتُ عن ذكاء ، وفتّشْتُ عن تجربة ، إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه ، ثم عَجَمَ عيدانها ، فوجدنى أمرّها عودا ، وأصلبها عمودا ، فوجهنى إليكم ، فإنكم طالما أوْضَعْتم فى الفتن ، وأضجعتم فى مراقد الضلال ، وسَنَنْتم سُنَنَ الغىّ ، أما والله لألحُونّكم لَحْوَ العصا ، ولأضْربنكم ضرب غرائب الأبل ، فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا ، من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقول إلا وفّيت ، ولا أهمّ إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت . أما والله لتَسْتَقيمُنّ على طريق الحق ، أو لأدَعنّ لكل رجل منكم شغلا فى جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صُفْرة ، وإنى أقسم

بالله، لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . » .

وقبل أن أمضى معك فى شرح الأبعاد التاريخية لهذه الخطبة النارية، ينبغى أن أشرح لك بعض معانيها الأدبية . . فالحجاج يصارح أهل العراق ـ أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ـ بحقيقة كونه سفاحا محبا للدماء، شغوفا بقطع الرؤوس، وهو يرى رؤوسهم قد نضجت حتى تستحق القطع، وهو جاهز، ويرى دماءهم تسيل بين العمائم واللحى . . ويريد منهم أن يفهموا أنه ليس بالرجل الذى يخاف من الجعجعة وطول اللسان، وأن ابتلاءهم به تم بعد اختيار دقيق من جانب الخليفة عبد الملك الذى اختبر قواده وفحصهم فحصا عمليا فوجد الحجاج أشدهم مرارة وأصلبهم عودا، وأكثرهم قسوة، فرماهم به، ثم يؤنب أهل العراق لأنهم أوغلوا فى الفتن ، وأسرفوا فى الضلال، ولذلك فهو يحذرهم بأنه سينزع جلودهم مثلما تقشر العصا وينزع عنها لحاؤها، ولسوف يضربهم كما تضرب الإبل الهاربة، وإن عليهم أن يسارعوا بالخروج لقتال الخوارج فإذا ضبط متخلفا عن القتال بعد ثلاثة أيام فسيكون جزاؤه قطع الرقبة .

وأنت إذا عدت إلى قراءة الخطبة بعد فهم معانيها فسوف تكتشف أنك بإزاء أديب مفطور على البلاغة والتعبير عن المراد بأقل الكلمات، وقد سبق أن قلت لك إن الحجاج كان أديبا مثلما كان سفاحا، وإن قدرته الأدبية لاتقل عن قدرته الدموية، وإن شهرته بين الأدباء لاتقل عن شهرته بين الطغاة والبغاة، وقد حفظ تاريخ الأدب فى العصر الأموى تراث الحجاج من خطب وطرائف ونوادر، وحظى هذا التراث باهتمام نقاد الأدب القدامى والمحدثين .

فالناقد الكبير الدكتور شوقى ضيف يلاحظ أن الحجاج يفتتح خطبه بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم، وهو يرى

أن الخطبة التى ألقاها فى مسجد الكوفة تزخر بأسلوب تصويرى قوى، ويضعه فى الذروة بين أهل الخطابة والبيان، ويروى أن الحسن البصرى كان يقول عن الحجاج إنه « يعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين». والأزارقة هم تلك الطائفة من الخوارج التى اشتهرت بالفصاحة الخطابية.

● الخـــوارج :

كان أهل العراق قد عادوا من محنة التحكيم فى (دومة الجندل) وقد انصرفوا عن إمامهم على بن أبى طالب، وخلعوا بيعته، وخرجوا على إمامته، ومن يومها دخلوا التاريخ تحت اسم (الخوارج) ثم اعتزلوا الناس والمجتمع والدولة، ورفضوا دخول الكوفة. وتجمعوا عند ظاهرها فى مكان يدعى (حرؤراء) وأقاموا لأنفسهم إماما للصلاة وإماما للقتال، وألزموا أنفسهم التمسك بحرفية النص القرآنى لايحيدون عنها، وشيئا فشيئا ازدادت عزلتهم. وحكموا على غيرهم بالكفر، ثم حملوا على الناس قتلا وترويعا، ونشروا الإرهاب فى النفوس، وتآمروا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص.. ولم ينجحوا إلا فى قتل الإمام، وأفلت الآخران، وبعدها تحول الخوارج إلى فرق وجماعات تتنافر فى الفكر، وتتفق فى العنف، ورفعوا لواء الثورة على حكم بنى أمية، فلم يهادنوا أو يساوموا على مبادئهم، وأعلنوها حربا لا هوادة فيها على الدولة، وجعلوا من العراق قاعدة لانتفاضاتهم ، وأرسلت الدولة إليهم الجيوش فكانوا يهزمونها حينا وينهزمون حينا آخر، حتى رأى عبد الملك أن يبعث إليهم بالحجاج، فهو كما وصف نفسه أصلب القواد عودا وأشدهم مرارة.

وهاهو الحجاج يمضى إلى مهمته فى العراق بخطوات ثابتة تأخذ الناس بالشدة والعنف والعسف، ويسوقهم بالعصا إلى الانضمام إلى

جيش المهلب لمقاتلة الخوارج، وأمهلهم ثلاثة أيام فقط تدافع الناس خلالها على القتال بعدما شعروا جديته وصرامته وعزمه على التنكيل بهم، ولم يقبل الحجاج من أحد عذرا حتى لو كان شيخا كبيرا، أو عليلا أقعده المرض، وقد تقدم إليه رجل من (يشكر) وقال له: أيها الأمير إن بى فتقا وقد رآه بشر بن مروان ـ الأمير السابق ـ فعذرنى . . فلم يقبل الحجاج عذره وأمر بقطع عنقه ليكون مثالا لكل من تسول له نفسه مخالفة أمر الأمير . . وتناقل الناس هذه الحكاية وغيرها كثير، فأدركوا أنهم أمام سفاح متعطش للدماء، لايبالى فى سبيل تنفيذ أغراضه بأن يرتكب أى أمر مهما جلَّ أو عظم، فالغاية عنده تبرر الوسيلة، وهاهو يفرض الأحكام العرفية على أهل الكوفة. ويمنع التجمهر، ويكافح الشائعات حتى خافه اللص فى وكره، والمنافق فى خلوته، والجنين فى بطن أمه.

وأتت خطة الحجج ثمرتها الأولى فى الكوفة، فانتقل إلى الثانية قدما، وذهب إلى البصرة، ثانى أهم الأقاليم العراقية، وكان له مع أهلها لقاء لا يقل بشاعة عما كان مع أهل الكوفة، وألقى فيهم خطبة كلها تهديد ووعيد « أيها الناس، من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه، ومن استطال أجله فعلىَّ أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه، وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضى عمره، قصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفا(يعنى مسا) وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته، ومن وَضَعهُ ذَنْبهُ ، رفعه صلْبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عليه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه. إنى أنذر ثم لا أنظر (لا أمهل) وأحذر ثم لا أغذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم (يعنى تسامح وضعف حكامكم) ومن استرضى لَبَبُه (وهو مايستخدم لشد صدر الدابة ليمنع استرخاء الحمل) ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلبانى سوْطى، وأبدلانى به سيفى، فقائمه فى يدى، ونجاده فى عنقى، وذبابه (يعنى حده) قلادة لمن عصانى. . ».

● **برقيـــات :**

ولعلك وجدت فى خطبة البصرة ماوجدته فى خطبة الكوفة من لهجة مسرفة فى التهديد والوعيد، ولعلك وجدت أيضا صورة بيانية لبلاغة الحجاج، وقدرته على التعبير عن المعانى بأقصر العبارات كأنها البرقيات، وقد أجمل الدكتور محمد أحمد الحوفى خصائص خطب الحجاج فى أنها تتسم كلها بقصر الفقرات حتى أن كثيرا من فقراتها مركب من كلمتين أو ثلاث، كما تتسم بالإكثار من الاقتباس من القرآن الكريم، اقتباسا ينبىء عن حفظ وفهم عميقين وتذوق دقيق، ولا عجب، فقد كان يعلم القرآن ويحفظه ويفهم مراميه ومضامينه، وكذلك يكثر من الاستشهاد بالشعر وهذا واضح فى خطبته الأولى بالكوفة، وليس فى هذا عجب، لأن الرجل كان شاعر النفس ولعله لولا الحكم والسياسة والحرب لكان من الشعراء.

وفى رأى الدكتور الحوفى أن الحجاج كان أكثر خطباء عصره تهويلا وتخييلا، حتى أن قسوته فى الحكم، وغلظته على أهل الفتن لتتجليان فى أقواله، كما تتجليان فى أفعاله، ووسيلته إلى التهويل والتخييل مقدرته البيانية، فهو مغرم بلغته وأسلوبه، مولع بالتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل، مثل قوله: والله لأحزمنكم حزم السلَمة، والسلم نوع من الشجر كثير الشوك ويخبطونه بالعصا ليتساقط الورق فتأكله الماشية. فلا عجب إن كان بعض سامعيه من خصومه يتأثرون ببلاغته، ويخالون الحق فى جانبه، وقال أحد معاصريه: مارأيت أحدا أبين من الحجاج، إنه كان يرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحه عنهم، وإساءتهم إليه، فأحسبه صادقا، وأظنهم كاذبين. وقال الحسن البصرى: لقد وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج، وهى قوله على المنبر: إن رجلا ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له، لجدير أن تطول حسرته.

وكان الحجاج بارعا فى تأييد وجهة نظره بالتدليل الخطابى الذى يكفل الإقناع، أو على الأقل، يزعزع الرأى المعارض له، فإنه لما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد الحجاج المنبر وقال : ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب فى الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنَّ بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة، لمنع آدم حُرْمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة» .

فكان الحجاج يرى أن الطاعة السابقة لاتمنع من عقوبة العاصى، بدليل أن الله عاقب آدم، وابن الزبير كان طائعا وعزيزا، لكنه عصى، إذن فعقوبته حق .

كما تشيع فى خطب الحجاج الموسيقى الناشئة عن سجع قصير الفقرات، أو الناشئة عن التقسيم والازدواج، وبسبب اعتداده بنفسه، واعتزازه بقوته وبطشه، كان الحجاج يستخدم ضمير المتكلم (إنى لأرى رؤوسا) وما ذلك إلا لرغبته فى أن يزيد السامعين خوفا منه، وتوقيا لعقابه، لأنهم واثقون من شدته وهو حينما يضيف أفعاله إلى نفسه بضمير المتكلم يضاعف الرعب منه ومن نكاله .

والمأثور عن الحجاج أنه كان جادا صارما ، قليل الضحك، مهيب المنظر، مرعبا، وله فى ذلك أخبار كثيرة منها، أنه وفد على الخليفة الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فبينما هما يتحدثان جاءت جارية فهمست فى أذن الوليد ومضت، ثم عادت وهمست فى أذنه، وانصرفت. فقال الوليد للحجاج : أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد؟

فقال الحجاج : لا والله .

قال الوليد : بعثتها ابنة عمى أم البنين، تقول مامجالستك لهذا

الأعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج، فراعها ذلك، وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك، وقد قتل الخلق!

فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين، دعْ عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهْرمانة (أى مسيطرة) فلا تطلعهن على سرك، ولا مكايدة عدوك، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن فى الأمور، فإن رأيهن أفَن (يعنى فساد) وعزمهن إلى وَهَن (ضعف) ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك .

ولكن . . هل أفلحت سياسة العسف والجور والإرهاب فى تنفيذ مقاصدها؟ وهل نجحت فى توطيد سلطان الدولة، وإخماد الفتن والثورات؟

الأمير الثائر

فرض الحجاج على العراق سياسة القمع والبطش والإرهاب، وأصبح الآمر الناهى، والسيد المطاع، والحاكم الأوحد، وفرض على الأهالى أحكامًا صارمة أشبه بالأحكام العرفية فى العصر الحديث. فمنع التجمهر والاجتماعات وحظر عليهم السفر فى قوافل أو جماعات.. «إياى وهذه الزرافات.. لايركبن الرجل منكم إلا وحده..» وأدرك الحجاج خطر سلاح الشائعات على نظام الحكم فأعذر وأنذر وقال: «فإياكم وقيل وقال .. ومايكون وما هو كائن..». فانحبست الأصوات فى الحلوق، وانعقدت الألسنة فى الأفواه.. وخيم الرعب على العراقيين فلا تسمعهم إلا همسا..

وكان هذا الإرهاب بداية لسياسة جديدة اختطها الحجاج لتأديب أهل العراق وصرفهم عن الاشتغال بالسياسة، وإخماد أصوات المعارضة التى تعلو بين الحين والآخر، ورأى الحجاج أن خير وسيلة لتنفيذ خطته هى إشغال الناس بالحروب الخارجية، وإجبارهم على الذهاب إلى ميادين القتال لحرب الخوارج، فيضرب عصفورين بحجر واحد، فالحرب فرصة للقضاء على الخوارج الذين يشهرون السلاح فى وجه الدولة، والحرب فرصة للخلاص من العراقيين المشاغبين الذين يسببون للدولة إزعاجات مستمرة والقضاء على أوكار المعارضة المنبثة فى الكوفة، وبذلك يسلط أحد الجانبين على الآخر فتستريح الدولة من كليهما.

ولكن الحجاج - مثل كل الطغاة الذين لا ينظرون إلى أبعد من أقدامهم - لم يفطن إلى عواقب هذه اللعبة الخطرة التى تقوم على المقامرة أو المغامرة، بزج الشعب فى حروب أهلية يمكن أن تنقلب عليه، ولم يفكر فى النتائج التى عساها تنجم عن إضرام الحرب بين طرفين يضمران له العداء، فمن يضمن أن تتحول السيوف المشرعة عن أهدافها وترتد إلى نحره، ولم يهتم هذا العسكرى الغشوم بخطر إجبار الناس على خوض حروب على غير اقتناع منهم.

والخوارج كانوا يعادون النظام الحاكم ولكنهم نجحوا فى مواقف كثيرة فى استمالة قطاع كبير من المجتمع العراقى، وهم طائفة الموالى الذين عانوا الكثير من مظالم الدولة الأموية وتعصبها المقيت للعناصر العربية، وعدائها البغيض للعناصر غير العربية الأمر الذى غرس المرارة والحقد فى نفوس هذه الجموع الغفيرة التى آمنت بعدالة الإسلام ومساواته بين جميع المواطنين بصرف النظر عن ألوانهم وأعراقهم، فلما وجدوا اضطهاد الدولة لهم تمنوا زوالها وتعلقوا بكل ثائر يعدهم بالخلاص، وقد حدث هذا فى ثورة المختار الثقفى الذى نجح فى تأليب الموالى ووعدهم بالمساواة فانضموا إلى صفوفه، فلما اندحرت حركته استكان الموالى على مضض، وبقيت فى نفوسهم جذوة الحقد تعمل تحت الرماد، ولم ينتظر الحجاج حتى تهب الرياح فتشتعل الثورة من جديد، ورأى أن يسوق هؤلاء وأولئك سوق النعاج إلى حرب الخوارج فيقضى بعضهم على بعض. وأمهل الناس ثلاثة أيام يدبرون فيها أمورهم قبل أن يحملوا سلاحهم ويلحقوا بالجيش.

فهل حققت خطة الحجاج أهدافها؟ وهل استقامت له الأمور بعد أن أشعل جبهة الحروب الخارجية ليأمن شر الحروب الداخلية؟ وهل هدأ العراقيون وكفوا عن الاشتغال بالسياسة؟

فى رأى بعض الباحثين فى تفاصيل هذه الفترة من تاريخ العراق أن

هذه السياسة كانت سلاحا ذا حدين، فلئن كانت هذه السياسة قد أبعدت الكوفيين عن التفكير فى المسائل السياسية فشغلوا - إلى حين - عن معارضة الدولة الأموية والخروج عليها، وخلصت الحجاج والدولة الأموية من كثير من أهل الكوفة الذين قتلوا فى ميادين القتال، فإن هذه السياسة - من ناحية أخرى - عملت على نشر حركة المعارضة ضد الدولة الأموية فى الأقاليم الشرقية، وبخاصة فارس وخراسان، الأمر الذى مهد إلى قيام الانقلاب العباسى والقضاء على الدولة الأموية. وليس من شك أن هذه العناصر الكوفية التى خرجت مكرهة للقتال فى هذه الأقاليم خوفا من وعيد الحجاج كانت من العوامل القوية التى ساعدت على نشر روح المعارضة فى هذه الأقاليم التى كانت حركة المعارضة قد سبقت إليها منذ أقدم زياد بن أبيه على نقل مجموعات ضخمة من الأسر الكوفية إلى خراسان ليأمن شرها، ثم اشتدت حركة المعارضة بعد مقتل الحسين، وإذا كان زياد قد دق بفعلته - دون أن يقصد - المسمار الأول فى نعش الدولة الأموية، فإن الحجاج دق - دون أن يقصد أيضا - المسمار الثانى فى النعش.

ومعنى ذلك أن الحجاج قد بلغ من هذه السياسة أهدافه القريبة، وهى التخلص من إزعاج المعارضة، ولكنه غفل عما وراء ذلك من خطر بعيد يتهدد الدولة الأموية التى أحبهاوأخلص لها طوال حياته، وارتكب كل فعل شنيع من أجل توطيد أركانها، واجتثاث خصومها وأعدائها، وشهد الحجاج بعينى رأسه فشل سياسته الرعناء فيما حدث من وقائع ثورة ابن الأشعث الذى بعث به الحجاج على رأس جيش كثيف لقتال الترك، ولكنه ارتد لقتال الحجاج نفسه ودارت بين الجانبين وقائع مريرة فى (دير الجماجم) التى كانت اسما على مسمى بسبب ما سُفك فيها من دماء.

● الأمير الثائر :

كان عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك « كندة» الأقدمين، من أشراف الكوفة الذين استذلهم الحجاج فامتلأت نفوسهم حقدا وضغينة على الدولة التي رمتهم بهذا الجبار العنيد، وأشربت قلوبهم روح التمرد والسعي إلى الخلاص من هذا الضيم، وقد واتته الفرصة المرتجاة عندما كلفه الحجاج بقيادة جيوش الدولة الأموية لتأديب « رتبيل» ملك الترك الذي دوّخ كل الجيوش الأموية ونكل بها نكالا شديدا ، وفكر الحجاج في قائد محنك يتصدى لهذا القائد الشرس، فوقع اختياره على ابن الأشعث وأمده بجيش عظيم يسمى (جيش الطواويس) لتمام أهبته وكمال عدته، وربما اختاره الحجاج ليتخلص منه ، وعلى أي حال فقد التقى ابن الأشعث بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالمغانم، غير أنه رأى ـ خشية على جيشه ـ التريث لالتقاط الأنفاس، ولايتوغل وراء الترك حتى لايطبقوا عليه كما فعلوا مع سلفه، وكتب إلى الحجاج بذلك، وبدلا من أن يتفهم الطاغية ظروف الرجل في هذه المناطق النائية، أخذته العزة بالإثم، وبعث إلى ابن الأشعث يعنفه ويؤنبه ويتهمه بالخور والضعف، ويهدده بالعزل إن لم يمض في الفتح . . وإليك نص كتاب الحجاج، وترى مافيه من عتو وغرور وعدم تبصر بعواقب الأمور :

« أما بعد فإن كتابك أتاني وفهمت ماذكرت فيه وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في الإسلام عظيما ، لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين، إني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأي مكيدة، ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك، والتياث رأيك ، فامض لما أمرتك به عن الوغول في أرضهم

والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم. وإن لم تفعل فإن إسحق بن محمد أخاك أمير الناس، فخله وماوليته» . .

وقرأ ابن الأشعث رسالة الحجاج الطافحة بالتهديد والوعيد، ووجد أنه هالك لامحالة إذا هو خالف أمر الحجاج، وأنه ضائع أيضا إذا هو أذعن لأمر الحجاج، ووجد أن الفرصة قد حانت لتلقين هذا الطاغية درسا أليما ، فجمع أركان حربه، وقرأ عليهم كتاب الحجاج، وخطبهم فكان من قوله :

«وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءنى منه كتاب يُعجِّزنى ويُضعفنى ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم». فثار الجند وقالوا : بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولانطيع، وقام أحدهم وهو عامر بن واثلة خطيبا، فعاب على الحجاج، ودعا الناس إلى خلعه، وكان مما قال :

« أما بعد . فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه : « احمل عبدك على الفرس، فإن هَلَكَ هَلَك، وإن نجا فلك». إن الحجاج والله مايبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلادا كثيرة اللهوب واللصوب (الطرق الضيقة الوعرة) فإن ظفرتم فغنمتم، أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادة فى سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء، الذين لايبالى عنتهم، ولايبقى عليهم، اخلعوا عدو الله الحجاج، وبايعوا عبد الرحمن، فإنى أشهدكم أنى أول خالع» .

فنادى الناس من كل جانب فعلنا . . فعلنا . . قد خلعنا عدو الله وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى التميمى فقال : « عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم مابقيتم، وجمركم تجمير

فرعون الجنود (والتجمير هوحبس الجنود بأرض العدو بعد القتال) فإنه بلغنى أنه أول من جمر البعوث، ولن تعاينوا الأحبة فيها أرى أو يموت أكثركم، بايعوا أكثركم، بايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم» .

فوثب الناس إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه، عند ذلك أعلن ابن الأشعث الخروج على الحجاج وعلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وخلعهما، وتبعه الناس فى ذلك ، وسار بالجيش فدخل البصرة، ثم الكوفة، فاجتمع إليه أهلها وأهل الثغور، وعقدوا العزم على مقاتلة الحجاج .

● مبايعـــة :

وبايع الناس ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد الظالمين والفساق، فلما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه، ولكن الخليفة لم يستجب إلى طلبه واحتاط للأمر، وأراد أن يستخدم الحيلة مع ابن الأشعث قبل أن يحتكم إلى السلاح، فعرض على الأمير الثائر أن يختار أى بلد من العراق شاء يكون واليا عليه، وأن يخلع الحجاج عن حكم العراق، ويجرى على أهله أعطياتهم كأهل الشام، فجمع ابن الأشعث كبار قادته وعرض عليهم ما عرضه عليه الخليفة . وكان مما قاله :

« قد أعطيتم أمرا، انتهازكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمن أن يكون على ذى الرأى غدا حسرة، وإنكم اليوم على النصف، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية (موقع قرب البصرة) فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر (مدينة بالعراق) فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لكم هائبون، وأنتم لهم منتقصون، فو الله مازلتم عليهم أجْرِئاء، ومازلتم

عندهم أعزاء، إن أنتم قبلتم أبدا مابقيتم» فوثب الناس من كل جنب فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحواق الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة، ونحن ذوو العدد الكثير، والسعر الرفيع والمادة القريبة، لا والله لانقبل، ثم أعادوا خلع عبد الملك مرة أخرى.

والتقى الجمعان فى (دير الجماجم) عام ٨٢ هـ حيث دارت المعارك النهائية بين جيش ابن الأشعث وجيوش الحجاج فى ثمانين معركة واستمرت مائة يوم، وانتهت هذه الملحمة الهائلة التى لم تشهد أرض العراق ـ منذ وقائع صفين أعظم منها هولا، انتهت بهزيمة ابن الأشعث، فهرب إلى أرض الترك لاجئا فكتب الحجاج إلى « رتبيل» يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل، وعز على ابن الأشعث أن يقع حيا فى يد خصمه اللدود، وآثر الموت على حياة الذل والعنت، فقتل نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات لساعته، فضرب رتبيل عنقه وأعناق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وبعث بها إلى الحجاج تزلفا وقربى وليشفى غليله ويرضى حقده.

ودخل الحجاج الكوفة دخول الظافرين وصدره يغلى بالحقد والنقمة على أهل العراق. كما تمتلىء نفسه اعتزازا لجند الشام الذين كانوا على الدوام سيوف الدولة وحماتها، واعتلى المنبر ليقذف الناس بالحمم التى كانت تتناثر من فمه كما تتناثر النيران من البركان فقال :

« يا أهل العراق. إن الشيطان قد استبْطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف، والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافا، اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه. . ألستم أصحابى بالأهواز، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطَرْفى، وأنتم تتسللون لواذا، وتنهزمون سراعا، ثم يوم

الزاوية . . وما يوم الزاوية . ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لايسأل المرء عن أخيه، ولايلوى الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقسمتكم الرماح، ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يُزيل الهامَ (الرأس) عن موضعه، ويُذهل الخليل عن خليله . . » .

وبعد أن فرغ الحجاج من تقريع أهل العراق، التفت إلى أهل الشام وهم حول منبره، وقال لهم : يا أهل الشام . . إنما أنا لكم كالظليم (ذكر النعام) المدافع عن فِراخه، ينفى عنها المدَرَ (الطين اليابس) ويباعد عنها الحَجَر ، ويُكنّها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب، يا أهل الشام، أنتم الجُنَّة (الوقاية) . والرداء، وأنتم العدة والحذاء . . . » .

● تكفيــــر :

ولم تقف نقمة الحجاج على أهل العراق عند حد التقريع والسباب، وإنما أراد أن يشفى غليله بالطريقة التى ترضى عطشه إلى الدماء وجاء إليه الأسرى بعد هزيمتهم، وهو يأمر بضرب أعناقهم « فكان ذلك فعله يومه ذلك إلى الليل» على حد تعبير ابن قتيبة فى (الإمامة والسياسة) ويأتى إليه الأشراف والعلماء والقراء لإظهار الندم، ويجددون البيعة ، فيأبى أن تقبل توبتهم حتى يشهدوا على أنفسهم بالكفر، فمن شهد نجا، ومن أبى لقى حتفه، وجاءه رجل ذكى فقال الحجاج إنى أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، ولكن الرجل الحريص على حياته قال : أتخادعنى أنت على نفسى؟! أنا أكفر أهل الأرض، وأكفر من فرعون ذى الأوتاد» وراح ضحية هذه المحنة كثير من الأئمة والعلماء

والفقهاء الأفذاذ منهم الإمام العظيم سعيد بن جبير الذى رفض أن يشهد على نفسه بالكفر، وتصدى للحجاج بأشجع وأروع ماعرف تاريخ الإسلام من عبارات الصمود والثبات على الرأى .

وكان العلماء يمثلون كتيبة مستقلة فى جيش ابن الأشعث عرفت بـ «كتيبة القراء» قامت فى القتال بدور خطير، فقد اندفعوا فيه يقاتلون فى عزم صادق وشجاعة فائقة . يُحملُ عليهم فلا يكادون يبرحون، ويَحملون فلا يكذِّبون ، كما يقول الطبرى، ولعل أكبر دليل على هذه الشجاعة الفائقة أن الحجاج عبأ لكتيبة القراء ثلاث كتائب، ومن الطبيعى أن يقاتل هؤلاء القراء فى هذا العزم الصادق، وهذه الشجاعة النادرة ، لأنهم خرجوا مع ابن الأشعث عن إيمان دينى عميق بحتمية الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر، وضرورة الخروج حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الظالمين هى السفلى، وقد رأى هؤلاء « القراء» أن الحكام الأمويين المحلِّين المحدثين المبتدعين كما كانوا يسمونهم قد جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه وإن أحدهم ليقسم بالله إنه ما علم قوما على بسيط الأرض أعلم بظلم، ولا أجور منهم فى الحكم . .

وهكذا خرج هؤلاء القراء المؤمنون الصادقون يقاتلون الأمويين على جورهم فى الحكم، وتجبُّرهم فى الدين ، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة ، ومن هنا كان ذلك العزم الصادق الذى خرجوا به إلى القتال، وتلك الشجاعة الفائقة التى خاضوا بها غماره، فهم إنما يقاتلون فى سبيل الدين الذى أخلصوا له ، ووهبوا له حياتهم .

ولم يكد الحجاج يقضى على ثورة ابن الأشعث حتى مضى ينفذ سياسة ذات شعب متعددة يضمن بها هدوء هذه الأرض التى تنفجر بالثورة ، وقامت خطته الجديدة على عزل جند الشام عن أهل الكوفة حتى لاتتسرب إليهم روح الثورة، ورأى أن يبنى لهم مدينة جديدة تكون

لهم بمثابة المعسكر المعزول عن الحياة المدنية، فكانت مدينة « واسط» على منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة، وجعلها معقله وقاعدة حكمه، ونقل إليها فصائل من جيش الشام ليكونوا له رداء يحميه من أعدائه، وليكونوا سيفاً قريباً من يده إذا حانت ساعة العمل . . فقد كان الحجاج يشعر دائما أنه يعيش على أرض معادية، ويعيش بين قوم يضمرون له العداء بنفس القدر الذى يحمله لهم ، فما اتعس ذلك الحاكم الذى يحكم قوماً يكرههم ويكرهونه . .

أمن الدّولة وأمن الرعيّة

إذا كان المؤرخون لايختلفون على إدانة الحجاج وكونه سفاحا ولوعا بسفك الدماء . . إلا أن السؤال الذى عليه الخلاف هو : هل كان ذلك مرجعه طبيعة الحجاج الشخصية ، وظروفه النفسية المفطورة على الجبروت؟ أم مرجعه إلى الدولة التى كان الحجاج جنديا مخلصا لها منفذا لسياستها القائمة على الإرهاب والبطش والتنكيل بالخصوم؟ وهل يتحمل الحجاجُ ـ وحده ـ تبعات جوره وظلمه . . أم تقع المسئولية بالدرجة الأولى على الدولة التى أطلقت له الحبل على الغارب، وسكتت على أعماله التعسفية، بل شجعته على المضى فى طريق الإرهاب إلى نهايته ليحمى الدولة من الخارجين عليها والطامعين فيها والقائمين على إثارة الفتن والقلاقل والاضطراب فى أرجاء البلاد (!!) .

هذه قضية ينبغى أن نتوقف عندها قليلا . . لأنها تدور حول تحديد مسئولية الطغيان، وهل يتحملها « الأدوات» الذين تستعملهم الدولة؟ أم تتحملها الدولة نفسها التى تجعل من الترويع والإرهاب سياسة عامة، فتعصف بالقيم والمبادىء التى تحمى حقوق الإنسان، حتى لو كان هذا الإنسان معارضا للدولة، وهل من حق الدولة وهى فى سبيل الدفاع عن شرعيتها وسيادتها ضد الخارجين عليها أن تستبيح الحرمات وتستهين بالأرواح؟ وهل تفلح هذه السياسة فى إقرار الأمن والقضاء على الفوضى والتمرد؟؟

ولكى يكون حكمنا على الحجاج عادلا وموضوعيا ينبغى أن نلم بالظروف التاريخية التى عاش فيها الرجل، ونلقى نظرة فاحصة على أركان المسرح الذى لعب عليه الحجاج دور البطولة المطلقة طيلة حياته حتى أسدل الموت عليه ستاره فمات ميتة طبيعية عام ٩٥هـ فى مدينة واسط، و«مات على فراشه كما تموت العير» . . وجاءت نهايته عادية على عكس ما كان متوقعا . . وعلى غير ماجرى لكل الطغاة الذين لقوا حتفهم بنفس السلاح الذى قتلوا به خصومهم .

أجل . . ينبغى أن نتعرف على طبيعة المرحلة التى عاشها الحجاج لنرى تأثره بها وتأثيره فيها . . وما جرى من تفاعل بين مقوماته الشخصية . والمقومات العامة للدولة التى أخلص لها وأفنى حياته فى خدمتها وسخر مواهبه فى الدفاع عنها . . فليس مما يتفق مع طبيعة الأمور أن يكون البطل التاريخى نبتا شيطانيا ينمو من فراغ، ولابد أن يكون ابنا شرعيا للتربة التى خرج منها، والمجتمع الذى عاش فيه ، ولابد أن يكون المناخ العام للدولة مهيئا لإبراز مواهبه الشخصية ثم صقلها ومنحها فرصة التفوق . ولو لم تكن ظروف المجتمع الأموى ـ فى عهد عبد الملك ابن مروان ـ مهيأة لتقبل سياسة الطغيان والاستبداد، لما تمكن الحجاج من ممارسة دوره التاريخى، ولكان من الممكن ـ على الأقل ـ الحد من جبروته إلى أدنى حد .

أما وقد تواءمت . سياسة الدولة الاستبدادية مع النزعة المتأصلة فى نفس الطاغية فهنا تلتقى الظروف العامة مع الظروف الشخصية على سياسة واحدة لا خلاف عليها، ونحسب أن الحجاج لم يكن ليتمادى فى طغيانه وجبروته لو لم يكن الطغيان سياسة عامة رسمها عبد الملك، ونفذها الحجاج بشغف، فالحجاج وغيره لم يكونوا أكثر من أسواط تستخدمهم الدولة إذا أرادت . . وتحبسهم إذا « أرادت » .

● **شــتائم :**

ومن الأقوال التاريخية الشائعة أن الخليفة عبد الملك بن مروان ضاق ذرعا بفظائع الحجاج، وهاله إسرافه فى سفك الدماء، وارتاع عندما علم أن الحجاج استعرض الأسرى بعد هزيمة ابن الأشعث فى معركة دير الجماجم وأمر بضرب أعناقهم، فماذا فعل أمير المؤمنين مع الحجاج؟ هل اقتص منه تلك الأرواح البريئة التى قتلها غدرا وظلما؟ هل أمر بحبسه حتى يذوق وبال أمره؟ هل أقاله من منصبه حتى يقى الناس شره.. وهذا أضعف الإيمان؟

أبدا .. كل مافعله الخليفة أن أرسل إلى الحجاج كتابا فيه تقريع وتوبيخ وإليك نصه :

« يا ابن المستفرمة بعَجَم الزبيب، والله لقد هممت أن اركَلَك برجلى ركلةً تهوى بها فى نار جهنم! قاتلك الله.. أخَيْفِش العينين، أصَك الرجلين، أسودَ الجاعرتين.. ».

هذا كل ما فعله الرجل المسئول عن دماء المسلمين مع قائده الذى ولغ فى دماء المسلمين!! أرسل إليه يهدده بأن يرفسه برجله فيهوى إلى الجحيم.. ويسبه بأنه أعمش العينين وأن رجليه تضرب إحداهما الأخرى عند السير (!!) والذى أتصوره أن الحجاج تقبل تهديدات سيدة باسما ولسان حاله يقول : ضرب الحبيب ألذ من أكل الزبيب.

ومضى الحجاج فى سياسته الإرهابية غير عابىء بشتائم الخليفة لأنه يعلم علم اليقين أنه ـ أى الحجاج ـ إنما ينفذ سياسة عامة رسمها عبد الملك، ولم يخرج عليها الحجاج.. وربما زاد عليها حبتين إمعانا فى البطش، وإرضاء لنزوة شخصية تدفعه دفعا إلى تعذيب الخصوم وإذلالهم.

فالحجاج إذن لم يخرج عن سياسة الدولة الإرهابية، والتزم نهجها فى

العنف والبطش والقسوة والجبروت، كل ما هنالك أنه غالى فى هذه السياسة غلوا منكرا لأسباب ترجع إلى ميوله العدوانية، وطبيعته المتعطشة إلى الدماء، وقد أفصحت هذه النزوات عن نفسها فى الحجاز أولا . . ثم فى العراق ثانيا عندما تولى شئونه الحجاج، ولم يكن عبد الملك أقل من الحجاج كرها ونقمة على أهل العراق، وإذا كان الخليفة يكره أهل العراق قيراطا فإن خادمه الحجاج يكرههم أربعة وعشرين قيراطا . . فاندفع إلى الفتك بهم وتمنى لو أنه أزالهم من الحياة، ولو قدر لفعل.

هكذا كانت الدولة . . وكانت سياسة الحكم . . وعلاقة الراعى بالرعية ـ فما الذى جرى؟ ـ وما الذى جعل من الدولة سيفا مسلطا على رقاب العباد بدلا من أن تكون مصدرا للرحمة والعدل والإحسان؟

●عواصف :

لقد تسلم عبد الملك الدولة الأموية وقد عصفت بها الرياح الهوج وتفككت أوصالها وتكالبت عليها عناصر الفرقة والانقسام، فعبدالله بن الزبير قد استقل بالحجاز ومصر، وبعث أخاه « مصعب» واليا على العراق . . والخوارج انتهزوا فرصة وفاة معاوية وانقضوا على الدولة يعيثون فيها قتلا وترويعا . . وها هم « الأزارقة» أتباع نافع بن الأزرق يرفضون التهادن أو المساومة مع الدولة، بل تطرفوا فحكموا على مخالفيهم من المسلمين بالشرك، وأباحوا قتلهم وقتل أطفالهم ونسائهم، وقاموا بأعنف الثورات وأجرأ الهجمات لاسيما أنهم كانوا لا يجيزون القعود عن القتال ولا يتورعون عن قتل الأطفال وبقر بطون الحبالى، وكانت طريقتهم فى الهجوم أشبه بحرب العصابات فيغيرون غارات مفاجئة سريعة على جيوش الدولة، فلما تفاقم خطرهم رماهم مصعب بن الزبير بواحد من أشد القادة حنكة ودراية هو المهلب بن أبى صفرة الذى حفظ التاريخ

اسمه كأجرا قائد فى حرب الخوارج ، فلما مات مصعب وانتقل العراق إلى تبعية الدولة الأموية ، أبقى عبد الملك المهلب فى موقعه حتى نجح فى القضاء على الأزارقة ، وقد كان عنفهم وتطرفهم سببا فى سرعة القضاء عليهم واستئصالهم ، فلما تولى الحجاج حكم العراق تحركت فرقة أخرى من فرق الخوارج هى (الصُفْرية) تحت زعامة صالح بن مُسرِّح التميمى ، وكان معظم أصحابه من النساك الزهاد الذين يتشوقون إلى الشهادة تحت أسنة الرماح ، فرماهم الحجاج بجيش من أهل الكوفة فلما انجلت المعركة عن مقتل زعيمهم بايع الصفرية شبيب بن يزيد الشيبانى الذى كان مضرب المثل فى الشجاعة والتهور ، وقد استطاع أن يلقى الذعر فى قلوب أهل العراق على قلة أنصاره ، وتحدى هو وزوجته (غزالة) الحجاج فى قمة جبروته فدخل الكوفة وأدت غزالة صلاتى العشاء والفجر فى مسجدها دون أن يجرؤ الحجاج على الخروج إليهما . وكان الحجاج لايوجه إليه جيشا إلا هزمه ، وارتدت فلوله تجر ذيول الفشل ، حتى ليعجب المؤرخون من انتصارات شبيب المتصلة ، وهو فى قلة من العدد على جيوش الدولة اللجبة ، ومرد ذلك كله إلى قوة عقيدة الخوارج التى جعلتهم يستهينون ، بالجحافل الحكومية ، ويستعذبون لقاء الموت ، ويعدون الاستشهاد فى ساحة الوغى غاية ما يصبون إليه ، وانتهت أسطورة شبيب الشيبانى عندما زلت قدم فرسه وهو يعبر أحد الأنهار فمات غرقا سنة ٧٧ هـ وبذلك استراح الخليفة ومعه الحجاج من خطر الخوارج ، وطويت بموت شبيب صفحة من صفحات الفروسية النادرة . . ولكن لم تتوقف الاضطرابات والفتن ، وظلت الكوفة ـ عاصمة العراق الشيعية وموطن المناصرين لأهل البيت ـ وكر المعارضتين السرية والعلنية لدولة بنى أمية الذين اغتصبوا ـ فى رأيهم ـ حق أبناء على بن أبى طالب فى الحكم .

وكان هناك بعد آخر للعلاقة المتوترة بين أهل العراق والدولة الأموية يعود إلى الكره القديم الذى يحمله العراقيون للشام ـ عاصمة ملك بنى

أمية ـ فكان العراقيون جميعا يحملون الضغن والحقد على الشام لضياع سيادتهم وخضوعهم لدمشق، فسلط عليهم الأمويون ولاة غلاظا شدادا، وكان ذلك يزيد فى حقدهم وألمهم فتعلقوا بكل ثائر على الدولة الأموية، وسرعان ما كانت الجيوش تغلب عليهم فيخضعون على مضض، ويمضون منتظرين الحوادث، وجاء الحجاج ليأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولاشفقة، ورأى الحجاج أن أدوى دواء لهم أن يوجههم فى المغازى والحروب، وأن يشغلهم بالقتال خارج الحدود عن قتالهم الدولة حتى ليستكثر عليهم أن يعودوا ليقضوا ليلة واحدة طيبة بعد طول غياب، ويصارحهم بكرهه لهم ورغبته فى استئصالهم، ويكشف عن مكنون نفسه فى هذه الخطبة.

«يا أهل العراق ، إنى لم أجد دواء أدوى لدائكم (أى أشد إمراضا) من هذه المغازى والبعوث، لولا طيب ليلة الإياب، وفرحة القفل (أى الرجوع) فإنها تعقب راحة، وإنى لا أريد أن أرى الفرح عندكم، ولا الراحة بكم، وما أراكم إلا كارهين لمقالتى، وأنا والله لرؤيتكم أكره، ولولا ماأريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم، ما حمّلت نفسى تعاساتكم والصبر على النظر إليكم، والله أسأل حسن العون عليكم..».

● جفـــوة :

أرأيت إلى حاكم يحمل فى قلبه كل هذا البغض والحقد نحو رعيته؟ وماذا تنتظر أن يكون موقف الرعية من حاكم غشوم ظالم يتمنى زوالهم، ويبعث بهم إلى ميادين القتال، ليس دفاعا عن مبدأ أو عقيدة، ولكن رغبة فى الخلاص منهم.. وماذا تتوقع أن يكون ثمن هذه العلاقة الشاذة بين الدولة ورعاياها؟ يقول الدكتور ضياء الدين الريس: إن سياسة الشدة والغشم التى اتبعها الحجاج إذا كانت أجدت فى إخراج الناس

لحرب الخوارج ـ فإنها فى ذات الوقت أفسدت قلوبهم ونياتهم وأصبحت الجفوة بعيدة بين أهل العراق وبينه ولقد صار أهل العراق يكرهونه إلا من كانت مصالحهم تتفق مع البقاء معه .

وهذه السياسة أدت إلى قيام ثورة فى البصرة فى خلال سنة ٧٦هـ قادها عبد الله بن الجارود، وأيده عدد من القواد، وكاد الحجاج يهلك فيها أيضا لولا ثباته وحسن حظه، وانضمام بعض القواد إليه، ولم يكن هناك من سبب قوى لكى يعرض نفسه لهذه الثورة وهذا الخطر، فقد كان سببها أنه رفض أن يجيز زيادة مرتبات الجند، وكان مصعب بن الزبير قد قرر هذه الزيادة فى أواخر أيامه، فكان رفض الحجاج لهذه الزيادة ـ تعنتا وبخلا ـ ولاسيما أن الوالى السابق بشر بن مروان ـ شقيق الخليفة ـ كان أقر هذه الزيادة فكان أحسن فى السياسة لو أجازها الحجاج . وبذلك يرضى الناس ويرضى القواد، ويضمن تأييدهم بدل إغضابهم وإثارتهم، فإن التضحية بالأموال خير من التضحية بالرجال، ولئن كان الحجاج نجح فى إخماد الثورة، والقضاء على من خرجوا عليه فما كسب بذلك ، بل خسر كثيرا، وقد أدت هذه السياسة أيضا إلى ثورةرجل من أهل بيت عرف بإخلاصه للدولة هو : مُطرِّف بن المغيرة بن شعبة، وكان إذ ذاك واليا على (المدائن) فلم يرض عن « سياسة جور وتسلط بالجبرية» وهو ما يعرف فى العصر الحديث بالديكتاتورية، فلحق بالجبال ومازال يقاتل حتى قتل .

إن سياسة الشدة التى سلكها الحجاج، إذا كانت تنجح فى ظروف حربية استثنائية ولمدة مؤقتة فإنها لا تنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب، وإنها تؤدى إلى عواقب خطيرة، فملخص الحكم على الحجاج ـ فى رأى الدكتور الريس ـ أنه كان حاكما عسكريا، ولم يكن سياسيا ولاقائدا حربيا، وكان يجب على الخليفة عبد الملك ـ بعد أن انتهى أمر الخوارج ـ أن يعزله، ويبدله بحاكم أكثر سياسة وأوسع أفقا

ليجتذب قلوب الناس، بدل أن يزيدهم نفورا، لكن يظهر أن عبد الملك كان سيىء الاعتقاد فى أهل العراق، وكان يرى أنه لايصلح لهم إلا الشدة والقوة، وإلا أحدثوا الفتن ولم يطيعوا الأوامر، وإنه لايخضعهم إلا مثل الحجاج.

● الرجل المناسب :

وفى رأى بعض الباحثين أن الحجاج كان هو الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى ظل الظروف العاتية التى كانت تمر بها الدولة الأموية، إذ كان عبد الملك يواجه مشاكل جسيمة من عظائم الأمور، وكان عليه أن يجابه الفتن والدسائس والمتمردين عليه، والخارجين على الطاعة من الرعية، والمتطلعين إلى الملك، والناقمين على الخلافة، وأن يروض تلك الشعوب الإسلامية فى الأمصار المختلفة على الطاعة، والانصراف عما كانوا عليه من مؤازرة أعداء بنى أمية وأتباع تلك الطوائف فى احتضان دعواتها، كان عليه أن يقرر النظام والأمن ويهيىء لحياة الاستقرار فى ربوع البلاد، وأن يتفرغ للإصلاح الداخلى ورعاية شئون الدولة، وأن ينشر لواء الإسلام فيما وراء الحدود، حيث توجد بلاد وشعوب تنتظر نور الإسلام وعدله وسماحته.

ومن أجل تنفيذ هذه السياسة العامة سلك عبد الملك سبيل الشدة، والعقاب على الصغيرة عقاب الكبيرة، وأخذ الناس بالتهديد والوعيد والتحذير، ولقائهم بحد السيوف وأسنة الرماح، كما وعدهم ومناهم فى العاجل والآجل واختار عبد الملك لتنفيذ هذه السياسة الحجاج بن يوسف الثقفى لعلمه بالمزايا الشخصية التى يتمتع بها والتى تصلح تماما مع ما يبتغيه الخليفة، وفى مقدمتها شدة إخلاصه لرئيسه عبد الملك وتفانيه فى خدمة الدولة وأداء واجبه، ومنها قوة شخصيته وإرادته، ورغبته فى الإصلاح والتعمير وكفاءته الإدارية، واهتمامه بشأن الفتوح التى سيكون له فيها أثر كبير فيما بعد.

● كفـــاءة :

ويلخص الدكتور عبد المنعم ماجد الجانب الإيجابى فى شخصية الحجاج، وقد برزت أعماله الإصلاحية فى العراق ولم تقف عند حفظه من الفتن بل عمل على إصلاحه مما أصابه بسببها، فهذه البلاد الواسعة التى كان العرب يسمونها بالسواد لكثرة زروعها قد آل معظمها للعرب بعد فرار ملاكها أو قتلهم، وقد أهملت هذه الأراضى منذ آخر عهد عثمان بسبب الفتنة الأولى، ثم أصلحها زياد فى عهد معاوية، وحفر بها القنوات كذلك قام الحجاج بإصلاحها بسبب ما أصا بهامن بوار أثناء فتن الخوارج، فكان يستخدم الفلاحين غير العرب فى إصلاحها، ولكنه كان يستذل الموالى بأن ينقش على يد كل مولى اسم بلده، فغرس فى أهالى السواد الحقد الأبدى ضد الأمويين، ولعل الحجاج أعاد توزيع أغلب أراضى السواد بسبب حرق الناس الديوان بالكوفة، وبذلك برزت شخصية الحجاج القوية فى تاريخ الدولة، فهو كما وصفه سيده عبد الملك بن مروان : « بفضله وَطِّأ المنابر ودوَّخ البلاد وأذل الأعداء » .

ومهما قيل فى مناقب الحجاج وكفاءته الإدارية وإصلاحاته العامة فإنه أفسد كل ذلك بما ارتكبه من أعمال العسف والجور والظلم، وكل ذلك لايصلح أمة إصلاحا حقيقيا أبدا كما يقول الشيخ الخضرى . . وكل ما فعله أنه وضع على المرجل غطاء مؤقتا لتأجيل الانفجار إلى حين حتى إذا حانت لحظة الغليان طار الغطاء فى الهواء وفاضت المياه الساخنة لتحرق من يصيبه رذاذها . . ومهما قيل عن مواهب الحجاج فإن ذلك لايوازى حب الناس، وطاعة الرعية عن رغبة وطواعية، والوثوق بإخلاصهم للوقوف مع الدولة فى أوقات الشدة، فالقاعدة المتينة الراسخة التى يؤسس عليها الحكم، وتقام عليها الدول، إنما هى حب الشعب لمن يحكمونه وإخلاصه لهم .

لقد نجح الحجاج فى القضاء على الخوارج، وانتهت فتنتهم وأخمدت

الثورات الأخرى واستعادت الدولة وحدتها نهائيا، ولم يعد هناك استثناء ولا شذوذ ولا خروج ولا انفصال، وصارت دولة واحدة وكتلة واحدة ليس عليها إلا خليفة واحد هو عبد الملك بن مروان، وعاصمة واحدة هى (دمشق) والفارق كبير بين حال الدولة حين تسلمها عبد الملك ممزقة منقسمة على نفسها، تشيع فيها الحروب والفتن، وحالها بعد أن استقرت . . ولكن الثمن كان غاليا وفادحا . . دفعه مئات الألوف من الأبرياء الذين راحت أرواحهم فى الحروب والثورات . . ودفعه الملايين من الرعية تضييقا وعنتا وقيدا على حرياتهم . . ولكنه الصراع الأبدى بين أمن الدولة . . وأمن الرعية .

الحرية الحمراء

كثيرا ما راودتنى نفسى على اقتناء قفص بداخله عصافير من تلك الأنواع التى تدخل البهجة على النفوس بألوانها الزاهية وأنغامها الشجية، ولكننى كنت أتراجع عن تنفيذ هذه الرغبة، احتراما منى لقيمة الحرية عند هذا الطائر الصغير، وكنت ألوم نفسى إذ تبحث عن المتعة فى رؤية كائن يتعذب فى سجنه، ولا أسمع فى هذه الأنغام التى يشدو بها سوى نواح مكظوم وأنات سجين يبكى حريته الضائعة، ويتمنى اللحظة التى يتخلص فيها من القيود والأغلال، وينطلق فى ملكوت الله العريض، يتغنى بحريته ويصدح بما شاء الله له أن يصدح تسبيحا وتمجيدا لمولاه.
ونفس هذه الشعور يتملكنى كلما زرت حديقة الحيوانات، ورأيت الحيوانات الضخمة أسيرة.. ذليلة.. وراء القضبان.. وإننى لأقف أمام قفص السبع وهو ممدد على البلاط فى استرخاء يائس.. وأتفرس فى وجهه فأراه عابساً.. حزينا.. وتسرى إلى نفسى إشعاعات حزنه.. فأتألم من أجل هذا الكائن العظيم الذى تخشاه كل الكائنات، وتعمل له ألف حساب.. رحم الله يوما كان فيه سيد الغابة.. يتبختر فتفر من وجهه كل الأحياء مذعورة.. وتخلى له الطرق والمسالك!.. فما الذى أورده هذا المصير البائس.. وجعله أسيرا.. كسيرا.. يتحرك فى قفص يقاس بالأشبار، وهو الذى كان يمرح فى غابة لايحدها قياس..

لقد فقد السيد حريته.. وأصبح «فرجة» للصغار والكبار.. وتحول إلى عبد ذليل يتحكم فيه حارسه.. يطعمه وقتما يشاء.. ويوقظه وقتما يشاء..

ألا ما أقسى العبودية . . وما أعظم الحرية . .

ولاشك أن أسد الحديقة سوف تهون علبه بلواه إذا علم بمأساة أخيه أسد السيرك . . وقد حكمت عليه الأقدار بأن يتحول إلى بهلوان . . أو بلياتشو . . يجرى ويقفز ويرقص بإشارة من سوط يلعلع فى الهواء . . وضحكات الصغار تتصاعد من حوله ، والناس يصفقون لمهارته فى أداء الأعاجيب ، ولايعرفون أن مهارته هى غطاء زائف للجوع الذى يلسع أحشاءه . فطعامه مرتبط بهذه الحركات يقوم بها كل مساء . . وهو يقضى نهاره يتلوى من الجوع ، ولا يأخذ نصيبه من الطعام إلا إذا خرج على الناس فى الحلبة . . يضحكهم ويسعدهم ويبهرهم . . ثم يتقاضى الثمن بضع قطع من السكر تتسرب من يد المدرب إلى فم الأسد كلما أتقن دوره . . وأبدى من أعاجيب الفنون . . ما يضحك الإنسان .

فاعلم يا أخى حماك الله ـ أن الجوع ابن الذل . . والعبودية بنت الفقر . . والحاجة تنكس رؤوس الأحرار . . وكرم الله وجه القائل : أذل الحرص أعناق الرجال . . واعلم يا أخى ـ وقاك الله كل مكروه ـ أن الحرية هى السطر الأول فى كتاب الكون يوم خلق الله الكائنات لتسبح بحمده وهى تجوب أجواز الفضاء . . أو تغوص فى أعماق البحار أو تجول فى فجاج الأرض . . ثم جاء الإنسان فبغى وطغى . . وتكبر وتجبر . . وجعل من نفسه إلهاً فى الأرض فاستعبد أخاه الإنسان . . وصادر حريته . . وأرغمه على خدمته بالسخرة . .

وعرفت الإنسانية معنى العبودية . . والرق . . وكل المعانى القميئة التى تشوه جمال الحياة وتفسد العلاقات بين بنى البشر . . وتحول الناس إلى سادة يتحكمون . . وعبيد يركعون . . وأصبح الإنسان غير آمن على نفسه من أخيه الإنسان . . لا يأمن الابتعاد خطوات عن مضارب قومه فتلتقطه أيدى العصابات التى كانت تجوب الصحارى والقفار ، وتختطف كل من يقع فى طريقها من بشر فيصبح رقيقا يباع فى سوق النخاسة .

لقد أفسد الإنسان ناموس الحياة . . ولم تعد الحرية فطرة تخلق مع الإنسان عند ولادته . . وإنما أصبحت حقاً مغتصباً يسعى الإنسان إلى استرداده، ويبذل فى سبيله النفس والنفيس . . ويحافظ عليه بكل ما يملك من قوت . . ويدافع عنه كما تدفع الأم عن صغارها نهم الوحوش . .

إنك إن تهاونت فى حريتك لحظة فهيهات أن تستردها . . وإن تغافلت عنها طرفة عين فسوف تجد من يسرقها منك، ويدعيها لنفسه . . فتصبح له عبدا . . ويصبح لك سيدا . .

ونحن فى حياتنا التربوية نقدس الحرية ونزرعها فى نفوس أولادنا . . ونتغنى بالشعارات التى تمجد الحرية ، ونحفظ الكلمات المأثورة عن قيمة الحرية . .

نحفظ كلمة الخليفة عمر بن الخطاب التى يقول فيها: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . .

ونحفظ عبارة الزعيم أحمد عرابى التى ألقى بها فى وجه الطاغية الصغير توفيق : إن الله خلقنا أحرارا . . ولم يخلقنا تراثا أو عقارا . . ولن نورث بعد اليوم . .

ونحفظ بيت الشعر الذى بناه أمير الشعراء شوقى وقد بلغه نبأ المجزرة التى أقامها جيش الاحتلال الفرنسى لأحرار دمشق :

وللحرية الحمراء باب . . . . بكل يد مضرجة يدق

ونحن ننحت التماثيل وندبج القصائد فى تكريم أولئك الأحرار الذين قادوا حركات الكفاح ضد الطغيان فى كل أشكاله . . وحرروا أقوامهم من العبودية . . ونحن نفعل ذلك حتى تظل جذوة الحرية متقدة فى نفوسنا . . ولكن الحرية لا تنهض بقصائد الشعر . . إنما بالذود عنها . . ضد التسلط . . والقهر والبطش والطغيان . . فالصراع بين الحرية

والاستبداد هو صراع أبدى . . وسيبقى على ظهر الأرض طالما بقيت هناك نفوس متغطرسة ومتعطشة إلى التسلط . . وإذا كانت الحرية «حقا» . . فإنهاتصبح بلا قيمة إذا لم تكن هناك قوة تحمى هذا الحق وتسنده وتصونه من طمع الذئاب . . وإذا كنت بلا درع فسوف تتكالب عليك وحوش الفلاة . .

● حلاوة الحرية :

والحرية معاناة وممارسة . . وشقاء وعذاب . . ولكى تتذوق حلاوة الحرية لابد أن تدفع مهرها . . فالحلاوة التى بلا نار لم تخلق بعد . .

ولست هنا لأروى لك قصص الأبطال الذين ضحوا بحياتهم من أجل الحرية . ولكنى أتحدث عن الحرية كما ينبغى أن يمارسها كل إنسان دون أن يكون بطلا أو شهيدا . . حقك فى أن تعيش حرا فى مجتمع حر . . تعبر عن رأيك دون أن تخشى الملام . . حقك فى أن تمارس حريتك السياسية . . وحريتك الاقتصادية . . وحقك أن تختار الحاكم وتنتقده وتحاسبه إذا أخطأ . . وتغيره إذا خرج على حدود العدل والإنصاف . .

ولا تغضب إذا قلت لك إن كل هذه الحقوق لن تحصل عليها وأنت قابع فى بيتك . . تقرأ الصحف ثم تطويها وتمصمص شفتيك أسفاً وحسرة . . وتنتظر من غيرك أن يكافح ويستشهد ليقدم لك حريتك على طبق من الفضة . . هذا الطراز من الحرية أشبه بالمنحة التى يتفضل بها القادرون على العاجزين . . ولن تشعر بقيمة الحرية إلا إذا تعبت وشقيت وتعذبت مثلما شقيت شعوب حتى اقتنصت حريتها بأظافرها . . فأصبحت الحرية عندها قيمة عليا لايمكن التهاون أو التفريط فيها . . إن الحرية عند هذه الشعوب من المقدسات التى يستحيل على الحكام المساس بها . . ولم تصل الشعوب إلى هذه الدرجة الراقية إلا بعد كفاح

مرير ضد الطغاة المستبدين الذين كانوا يحكمون شعوبهم بمقتضى الحق الإلهى . . وهى خرافات زائفة كان الكهنة يشيعونها لحساب الملوك حتى تظل الشعوب ذليلة مقهورة تعمل وتشقى ليتمرغ الحكام فى النعيم . . ويتمرغ الناس فى جحيم الفقر والضنك . . ولكن الإنسانية لم تكن تعدم ظهور ناس شرفاء يتصرون للخير ويقفون إلى جانب العدل ، ويحتقرون الظلم ، أولئك هم المفكرون الأحرار الذين كانوا يجهرون بالحق ويشيعون فى الناس دعاوى الحرية ، ويؤلبونهم على كل مظاهر الفحش والفجور التى يمارسها الطغاة بمساعدة المأجورين من رجال الدين . . والسياسة ، وأخذ الناس يتمردون على ملوكهم . . ويرغمونهم على النزول على إرادتهم . .

● الميثاق الأعظم :

انظر مثلا إلى كفاح الإنجليز ضد ملوكهم الطغاة . . فى مطلع القرن الثالث عشر ، كان على رأس انجلترا ملك من هذا الطراز اسمه « جون » وهو شقيق ريتشارد قلب الأسد الذى جاء إلى الشرق على رأس إحدى الحملات الصليبية فى عهد صلاح الدين الأيوبى . . واعتزم الملك جون أن يواصل مهمة أخيه فى إعداد حملة صليبية ، وكانت الحملة فى حاجة إلى مال كثير وأراد أن يمارس حقه القديم فى فرض الضرائب الجزافية على الناس . . ولكن الناس كانوا قد ضجوا من فداحة الضرائب التى جعلتهم على الحديدة . . فثاروا على الملك جون عام ١٢١٥ وأجبروه على أن يوقع « الميثاق الأكبر » أو الماجنا كارتا الذى كان أول وثيقة للحريات فى المجتمع الإنجليزى . . وأصبح القاعدة التى قامت عليها مواثيق الحرية فى انجلترا . . وبمقتضى هذا الميثاق الأعظم قيدت سلطة الملوك فى فرض الضرائب كما حد من سلطة الملك القضائية لصالح نظام التحكيم الإلهى القديم ، وأجبره الشعب على احترام حقوق جميع الطبقات . ولم يظهر فى

تاريخ انجلترا منذ ذلك الوقت ملك يجرؤ على نقض الحقوق التى نص عليها الميثاق . . وإذا أردت أن تدرك قيمة الحرية التى يتمتع بها المواطن الإنجليزى فلابد أن تتوقف أمام نص المادة ٣٩ من نصوص الماجنا كارتا والتى جاء فيها « لايجوز القبض على أى رجل حر أو سجنه أو نفيه أو مصادرة أملاكه أو إعدامه إلا بمقتضى حكم يصدره أنداده وطبقا لقوانين البلاد » وهذه هى المرة الأولى التى ينص فيها فى انجلترا على قاعدة عدم جواز القبض على الأشخاص أو سجنهم . . إلا طبقا للقانون . .

وأصبحت هذه القاعدة التى نص عليها الميثاق الأعظم، حجر الزاوية فى جميع الحريات الفردية حتى يومنا هذا . . ولعلك لاحظت أن النص يقرر هذه الحقوق للأحرار ـ وليس العبيد ورقيق الأرض ـ ومع ذلك فهو يعتبر بلا ريب الوثيقة الأولى للحريات الفردية فى انجلترا، ولم تتوقف جهود الإنجليز عند الميثاق الأعظم لأن الحرية إذا انبثقت وشعر الناس بقيمتها فسرعان ماينهلون من معينها الذى لاينضب ، ولذلك عمل الإنجليز على الحفاظ على حرياتهم عن طريق (برلمان) يمثلهم، ولما كانت الضرائب هى مثار الصراع بين الملك والشعب فقد وضع الإنجليز قيودا على حق الملك فى فرض الضرائب، فلا تكون إلا بموافقة البرلمان، وبذلك اكتسب الشعب الإنجليزى سلاحا جديدا وناجحا يشهره فى وجه الملك كلما حدثته نفسه فى التعدى على حريات الشعب . . وكان من الطبيعى ـ فى ذلك الوقت المبكر ـ أن يكون التمثيل البرلمانى مقصورا على اللوردات، ولكن مع تطور المجتمع وازدياد نسبة الأغنياء من عامة الشعب، رفض هؤلاء المساهمة فى نفقات الملك طالما أنهم غير ممثلين فى البرلمان ولا تتاح لهم فرصة الإشراف على هذه النفقات، وأصروا على عدم دفع ضرائب إلا إذا اشتركوا فى تقريرها . . وأذعن الأشراف واللوردات لمطالب الطبقات الجديدة وسمحوا لها

بالمشاركة فى التمثيل البرلمانى وحصل الشعب الإنجليزى على مكسب جديد. . ونشأ عن ذلك (مجلس العموم) الذى كان فى بداية أمره مقصورا على العامة دون الأشراف . . فلماتبين للأشراف أهمية هذا المجلس سارعوا بالدخول فيه. . وشيئا فشيئا ازدادت أهمية مجلس العموم حتى فاق مجلس اللوردات.

● **ملك مغـــرور :**

وكان لابد أن تمضى أربعة قرون على هذا التطور البرلمانى حتى ينضج على نار هادئة . . ولكن النار الهادئة تحولت إلى ثورة عارمة عندما حاول أحد الملوك المغرورين الخروج على التقاليد البرلمانية التى استقرت فى انجلترا وأصبحت من المقدسات . . حدث ذلك عام ١٦٤٠ عندما اعتلى شارل الأول عرش انجلترا، وكان يتمتع بروح استبدادية منفرة. . وغفل عن التطور الهائل الذى طرأ على الشعب الإنجليزى بعد اعتناقه المذهب البروتستانتى احتجاجا على فساد الكنيسة الكاثوليكية. . كان مارتن لوثر قد أعلنها ثورة ضد استبداد البابوية والكهانة. . وأعلن حق الإنسان فى أن يتصل بالله دون وساطة الكهنة. . وجرت كلمات الحرية والحق على أفواه الإنجليز ضد السلطة البابوية. . كما جرت من قبل ضد استبداد الملوك. . وفى هذا المناخ المفعم بالحرية ظهر شارل التعيس ليعيد عقارب الساعة إلى الوراء ويسعى إلى التخلص من البرلمان حتى يطلق يده فى فرض الضرائب فى غيبة نواب الشعب، ولكنه فوجىء بالأصوات الحرة تصيح وتصرخ فى وجهه بأنه ليس له « حق» فى ذلك . . وأصبحت كلمة «حق» من الكلمات التى توارثها الإنجليز منذ « الحقوق » التى توصلوا إليها فى الميثاق الأعظم، بحيث يستحيل على أية قوة أن تصادرها أو تزعزعها ، وأعد البرلمان وثيقة لكى يوقعها الملك هى وثيقة « حق التظلم» بمقتضاها لايجوز تكليف أى مواطن بأى ضريبة ما لم يقرها البرلمان.

نسى شارل التعيس هذا التطور الخطير، وأراد أن ينفى حق البرلمان فى اعتماد الضرائب، وأراد أن يحتكر الإشراف على الجيش ليكون أداته لضرب المدن المتمردة التى ترفض دفع الضرائب، وأصر البرلمان على حقه . . وأصر الملك على استبداده . . فكان الصدام . . وذهب شارل إلى البرلمان وقد تملكه الزهو والغرور . . وخاطب النواب من طرف أنفه قائلا :

تذكروا أن البرلمانات فى يدى ، أدعوها وأعقدها وأحلها ، وعلى قدر ما أجد فيها من ثمرات حسنة أو سيئة أبقيها أو ألغيها . .

ثم ازداد وقاحة فقال « لاتعدوا هذا تهديدا منى . . لأنى أربأ بنفسى أن أهدد أحدا ما لم يكن مساويا لى » . .

ثم أسرف فى الوقاحة فقال « إن الملك والرعية شيئان مختلفان منفصلان» ومضى شارل فى استبداده ، فأغلق البرلمان بالضبة . واحتفظ بالمفتاح فى جيبه . ووضع على بابه لافتة (مغلق للتحسينات) وأطلق زبانيته وراء النواب يؤدبونهم على الكلمات التى قالوها تحت قبة البرلمان . . وانطلق جباة الضرائب فى حماية الجيش لنهب المتاجر والمزارع والمصانع وسلب أموال الناس جهارا نهارا . . ومن يرفض يلقى فى أعماق السجون . . فكانت ثورة . . وكانت دماء . .

● نسخة سيئة :

كان شارل الأول نسخة سيئة من أبيه « جيمس الأول » الذى رضع ألبان الاستبداد وتربى فى أحضان الحق الإلهى للملوك، ويكره كل مايمت إلى الشعب، ويحتقر الأمة فأشعل بيده أتون الثورة التى تحولت فى عهد ابنه إلى حرب أهلية قضت عليه . ولك أن تتصور ملكا يقف أمام البرلمان ويخاطب أعضاءه بهذا العبارات الفاجرة :

«إن مقام الملكية هو أسمى شيء على الأرض، لأن الملوك لايقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله فحسب.. بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أربابا.. إن الملوك يُسمون بحق آلهة لأنهم يمارسون شيئا شبيها بالسلطة الإلهية على الأرض، فإنكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك، إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء، على البناء والهدم، وفق مشيئته يبعث الحياة أو يرسل الموت، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد.. وللملوك نفس القدرة أو القوة.. إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم، ولهم القدرة، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم، وفى كل الأمور، ومع ذلك لايحاسبهم أحد إلا الله وحده، ولهم السلطة فى أن يجعلوا من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيفما شاءوا، ويرفعون أيا منهم إلى عنان السماء أو يخسفون به الأرض، وكأنما يتصرفون فى أموالهم.

وكانت هذه خطوة إلى الوراء.. لأن النظرية السياسية فى العصور الوسطى كانت قد تطورت فجعلت الملك دوما نائبا عن الشعب صاحب السيادة.

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق» الملك، «وامتيازات» البرلمان، وهذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديمقراطية انجلترا من خلال الهزائم والانتصارات، وكانت مؤامرة الملك « شارل الأول » ضد نواب المعارضة فى مجلس العموم هى القشة التى قطعت رقبة الملك، فقد شعر البرلمان بنيات الملك العدوانية تجاه الحياة النيابية، وشعر الملك بنيات البرلمان، وكان ذلك بداية الحرب الأهلية التى شهدتها انجلترا عام ١٦٤٤ ، فقد استعد الملك للحرب ومن ورائه البارونات ورجال الدين، بينما انتفض البرلمان ومن خلفه جماهير الطبقة الوسطى التى ازدهرت وانتعشت ماليا وتملكت الثروة.

وأسفرت الحرب بين الملك والبرلمان عن ظهور شخصية أسطورية

برزت من صفوف الفلاحين. ذلك هو « أوليفر كرومويل» الذى نجح فى تنظيم صفوف جيش نموذجى خاض به المعارك ضد الجيش الملكى وظهرت مواهبه الحربية التى رفعته إلى مصاف عظماء القواد. كما عرف كرومويل بتسامحه الدينى فأفسح مجال الترقى أمام الجميع بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية، على أن البرلمان الذى استطاع أن ينال هذه الانتصارات الحربية عجز عن استثمارها سياسيا واجتماعيا، بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد البروتستانت وحرمانهم من معاشهم، كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه بعد الانتصارات التى أحرزها، وهكذا بدأت تظهر الفرقة بين صفوف المنتصرين فى جبهتى البرلمان والجيش، فما كان من كرومويل إلا أن طرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكى فى مجلس العموم، وانتزع من القلة الباقية قانونا بمحاكمة الملك وإعدامه بحجة أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى، ورفض اللوردات هذا القانون على أساس أنه ليس من سلطة مجلس العموم. وعندئذ قرر النواب « إن الشعب بعد الله مصدر كل سلطة عادلة، وإن النواب وهم يمثلون الشعب، أصحاب السلطة العليا فى هذه الأمة، وإنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون دون موافقة اللوردات أو الملك».

وفى ٦ يناير ١٦٤٩ عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك، وأبلغ أحد الأعضاء كرومويل بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ليحاكموا ملكا، فما كان من كرومويل إلا أن فقد صوابه وصاح فى وجهه قائلا: « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك، فعرضوا تبرئة « شارل» إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة وتنازل عن حقه فى الاعتراض على قرارات البرلمان ـ الفيتو ـ ولكن الملك أجاب بأنه لايستطيع إلى ذلك سبيلا لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة انجلترا، وليس ثمة من ينازع فى شجاعته.

وبدأت محاكمة الملك فى ١٩ يناير ١٦٤٩ وجلس القضاة الستون على منصة مرتفعة فى طرف من قاعة وستمنستر الشهيرة، واصطف الجند فى الطرف الآخر، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين، وأجلس شارل وحده، وسط القاعة، وتلا رئيس الجلسة ـ جون برادشو ـ قرار الاتهام، وطلب إلى الملك أن يجيب فأنكر سلطة المحكمة فى محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب انجلترا وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليه الجيش، هى أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو إطلاقا، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك» ودوت المنابر باستنكار المحاكمة وشجبها، وخشى برادشو على حياته فى الشوارع، وأرسل الأمير الصغير ـ شارل الثانى ـ رسالة من هولندا لاتحمل سوى توقيعه، ووعد القضاة على تنفيذ أية شروط يدونونها فوق اسمه إذا هم أبقوا على حياة والده، وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فداء للملك، فرفض عرضهم، ووقع ٥٩ من القضاة ـ بينهم كرومويل ـ الحكم بالإعدام، وفى ٣٠ يناير سار الملك فى هدوء إلى الموت فى هوايت هول أمام جمهور غفير تملكه الرعب، وبضربة واحدة من بلطة الجلاد قطع رأسه، وكتب شاهد عيان: « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم بشكل لم أعهده من قبل، وأرجو ألا أسمعه من بعد » .

● جمهورية انجلترا :

هل كان إعدام الملك شارل عملا مشروعا؟

يجيب العلامة ول ديوارنت بقوله : إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك، فإنه طبقا للقانون المعمول به يكون البرلمان ـ شيئا فشيئا وبشكل قاس ـ قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التى أقرتها السوابق لمائة عام ، فالثورة على التحديد أمر غير مشروع، وليس أمامها من طريق لتدفع بالجديد إلى

الأمام . . إلا هدم القديم ، وكان شارل مخلصا فى الدفاع عن السلطات التى ورثها عن اليزابيث وجيمس، لقد أثما قدر ما أثم هو ، وكانت غلطته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الجديد للثروة، اقتضى من أجل الاستقرار الاجتماعى توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان إعدام شارل عدلا ؟

يجيب ديوارنت أيضا : إذا نُحّى القانون جانبا، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضرورى لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كرومويل وزملائه ، وربما مع ألوان التنكيل والعذاب التى يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الإعدام عملا حكيما؟

يقول ديوارنت : من المحتمل ألا يكون كذلك، ومن الواضح أن كرومويل اعتقد أن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين إلى معاودة الثورة المرة بعد المرة، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذى لايمكن الوصول إليه فى فرنسا أو هولندا، والذى لم تلوثه أخطاء والده، والذى لابد أن تكلل هامته وشيكا بأمجاد البطولة . . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به فى الشعور الوطنى الذى استرد مساره على مدى أحد عشر عاما، ويوصى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة ، فإنه عندما وقع جيمس الثانى ابن شارل ، بالمثل ، فى الخطأ الجسيم تدبرت ثورة ١٦٨٨ الأمر، فى دهاء ارستقراطى وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة

دائمة، ومهما يكن من أمر، فإن الثورة السابقة ـ ١٦٤٩ ـ هى التى مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة.

● ضد الدكتاتورية :

تلك قصة الثورة الإنجليزية التى أطاحت برأس ملك، وأجبرت آخر على الفرار، أو سهلت له الفرار على حد تعبير ديوارنت، فماذا كان مصير انجلترا بعد أن قطعت رأس الملك وأسلمت زمام أمورها إلى الرجل الحديدى أوليفر كرومويل؟ هل كان أولئك الذين قطعوا رأس الملك بسبب تعنته وغروره واحتقاره لنواب الشعب، يعلمون أنهم سيقعون فى بؤرة الديكتاتورية العسكرية ممثلة فى كرومويل ؟ لقد أصبح الرجل هو سيد البلاد بلا منازع، فألغى الملكية، وأعلن الجمهورية، وألغى مجلس اللوردات، وألف هيئة تنفيذية مكونة من ٤١ عضواً، بينهم كرومويل نفسه، وسرعان مانشب الصراع بين مجلس العموم والجيش، فبينما كان كرومويل يرغب فى حل مجلس العموم بدعوى عدم تمثيله للشعب الإنجليزى تمثيلا سليما، كان المجلس يرغب فى التخلص من الجيش بتسريحه، إذ كان لايرى ضرورة لبقائه بعد انتهاء الحرب، على أن كرومويل لم يلبث أن دخل قاعة المجلس بصحبة بعض جنده فى اليوم الذى حدد لتسريح الجيش، وأمر جنده بطرد النواب، ثم حل الهيئة التنفيذية، وبدأ بذلك عهد الديكتاتورية فى انجلترا، التى استمرت خمس سنوات « ١٦٥٣ ـ ١٦٥٨» تمتع كرومويل خلالها بسلطات مطلقة.

ولكن الشعب الإنجليزى لم يستسلم للديكتاتورية، وبدأت القوات البحرية تتمرد على النظام الجمهورى، وثارت اسكتلندا وأيدت شارل الصغير ابن الملك القتيل حتى تحين الفرصة لإعادته إلى عرش انجلترا، وتململت بعض الولايات الأمريكية التابعة لبريطانيا وأبدت رغبتها فى الاستقلال، واستنكرت كل من فرنسا وأسبانيا وهولندا عملية إعدام

الملك، وبالرغم من هذه الروح العدائية استطاع كرومويل أن يثبت أركان الجمهورية عن طريق الحروب الخارجية، وظهرت قدرة انجلترا الحربية وفاقت كل قدراتها السابقة، مما جعل انجلترا تتميز بمركزها الحربى الممتاز بين دول أوروبا، وأن يضعها فى مصاف الدول الاستعمارية القوية ومات كرومويل فخلفه ابنه ربتشارد وسرعان ما ظهر الضعف فى النظام الذى أوجده كرومويل، وتبين أن البلاد كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تستطيع إدارة البلاد فى اقتدار، ولكن ولده لم تكن له قوة شخصية أبيه وإنما كان ضعيف الشخصية، على الرغم من أنه كان شابا محبا للخير والإصلاح، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه، وواجه صعوبات جمة لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم المطلوب، ووقع الشاب الطيب بين خطرين: خطر الجمهوريين الذين لايكفون عن إثارة القلاقل والانقلابات، وخطر الملكيين الذين يحنون إلى عودة النظام الملكى، وأخيرا الصراعات المذهبية الدينية.

● عـودة الملكيـة :

وعندما وصل ريتشارد إلى نتيجة حاسمة وهى عجزه عن مواجهة المواقف المعقدة، تنازل عن العرش وترك للجيش حرية التصرف، وتولى الجنرال «مونك» الأمر ـ وكان محبا للملكية فكتب يستدعى شارل الثانى ابن الملك القتيل من منفاه بهولندا، واستجاب شارل للطلب وعاد بسرعة إلى انجلترا وجلس على عرش أبيه وكان مثله فى الميل إلى الحكم المطلق والاستبداد بالرأى، وعلى الرغم من المصير السيىء الذى لاقاه أبوه، فإن الابن لم يتعظ واستأنف مسيرة أجداده فى الاستبداد، وبلغت به الخسة أن عمد إلى الانتقام من كل من رفعوا أصواتهم فى العهد الجمهورى، ومنهم الشاعر الإنجليزى العظيم «ملتون» الذى رصد ماتبقى من عمره بعد إعدام شارل الأول للدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية، ووضع كتابه

الشهير « دفاع عن الشعب الإنجليزى » ثم أردفه بكتاب آخر فى الدفاع عن الأحرار والثوار وهم الشعب كله . . وفقد ملتون بصره وعانى الفقر والفاقة فكتب إلى صديق له : « إنه يتحمل هذه العاهة راضيا لأنه يحس بأنه أرهق عينيه للذود عن الحرية، هذا الواجب العظيم» ، ولم يرحم الملك العائد شيخوخة الشاعر الجليل وعماه وفقره، فاستدعاه ليستمتع بإذلاله وقال له : ألست ترى أن ما تعانيه من فاقة وعمى هو الجزاء الذى قضى به الله عليك انتقاما لما كتبته عن أبى ! !

فما كان من الشاعر الكبير إلا أن قال له : إذا كان هذا جزائى عما قلت عن أبيك . . فكم كانت جرائم أبيك التى استحق عليها الإعدام . . ؟

وبهت الملك الصغير . وانتصر صولجان الشاعر على صولجان الملك!

● إعلان الحقـوق :

وبعد وفاة شارل الثانى خلفه أخوه فأراد أن يخلف أباه فى الاستبداد . . ولكن الإنجليز كانوا له بالمرصاد . . فلما رأى العين الحمراء رأى السلامة فى الفرار . فنفد بجلده وهرب إلى فرنسا فى سنة ١٦٨٩ . . عندئذ عرض الإنجليز العرش على الأمير وليم أورانج وزوجته مارى . . ووجدها الإنجليز فرصة للحصول على مزيد من الحقوق وتنظيم العلاقة بين الشعب والعرش بشكل نهائى . . وأسفرت الصفقة عن وثيقة « إعلان الحقوق » التى تضمنت بعض المبادئ التى كانت ركيزة النظام البرلمانى الديمقراطى فى انجلترا وهى :

* عقد البرلمان بين الفينة والفينة .
* حرية الانتخابات البرلمانية .

* حرية الرأى لأعضاء البرلمان والحصانة البرلمانية فلا يجوز محاكمتهم من أجل خطبهم .

* ضرورة إقرار البرلمان لجواز جباية أية ضريبة .

* ضرورة موافقة البرلمان لكى يجوز للملك حشد جيش فى أيام السلم أو استبقاؤه .

* ليس للملك أن يوقف القوانين أو يعفى أحدا من الخضوع لها . .

* وقبل وليم أورانج وزوجته مارى هذه الوثيقة، فتم تتويجهما، وبذلك أصبحت سلطة ملك انجلترا خاضعة لسلطة القانون . . وأنت ترى من ذلك أن الإنجليز لم يصلوا إلى هذه النتائج الباهرة إلا عبر كفاح مرير ضد الاستبداد . . واستطاعوا بصبرهم وجهادهم أن يحصلوا على هذه الوثائق التى تدور كلها حول تقييد سلطة الملك دون سلطة البرلمان . . وهوما يتميز به النظام الإنجليزى . .

لقد أصبح النظام البرلمانى الإنجليزى النموذج الأمثل لكل الأنظمة البرلمانية فى العالم أجمع. ونموذجا للديمقراطية التى تعصم الشعب والحاكم من الاستبداد. بالرغم من السلطة المطلقة التى يتمتع بها البرلمان الإنجليزى حتى يقال فى ذلك إن البرلمان الإنجليزى يستطيع أن يفعل كل شىء إلا شيئا واحدا . . هو قلب الرجل إلى امرأة . . والمرأة إلى رجل . . ولكنه يستطيع أن يفعل مادون ذلك . . وكما يقولون أيضا ليس المنطق هو الذى يحكم انجلترا . . وإنما يحكمها البرلمان .

أما عن سلطة الملك فهو لايزال حتى الآن يتمتع بالأفكار التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، أى أنه معصوم من الخطأ ، وذاته مصونة لاتمس ولا يخضع للمحاكمة إذا قتل أحد رعاياه ولايسأل إلا أمام الله . . كل ذلك مسجل فى الوثائق . . ولكن رشد الشعب الإنجيزى . . والدروس التى تلقتها الملكية على مر القرون . . كانت كافية لتجعل هذه النصوص مجرد حبر على ورق .

فالقضية ـ عندهم ـ ليست قضية نصوص تكتب على الورق، ولكنها قضية تقاليد وأعراف وقرت فى النفوس إلى درجة التقديس حتى يستحيل التفريط فيها أو المساس بها تحت أى ظرف من الظروف.. لامن جانب البرلمان.. ولا من جانب الملك.. وأنت ترى عند الدول التى تتمسح فى الديمقراطية وترفع شعاراتها، دساتير تفوق الدستور الإنجليزى إشادة بالحرية، وتغنيا بالديمقراطية وإسرافا فى الحقوق العامة، ولكن كل ذلك كلام فى كلام.. وهو لغو لايساوى ثمن الورق الذى كتب عليه.. لأن كل هذه الحقوق تتوقف على إرادة الحاكم.. إذا شاء منحها.. وإذا شاء منعها.. والمبادئ العظيمة المنصوص عليها فى الدستور تصبح عديمة المفعول عن طريق القوانين سيئة السمعة التى يصدرها الحاكم كلما توجس خيفة من شبح الحرية.

ومناط الأمر كله متروك لوعى الشعب، وقوة الرأى العام، واستنارة الحاكم إذا علم أن الحرية هى وحدها السياج الذى يحمى الدولة من ثورةالشعب وجور الحاكم، وهى وحدها المناخ الصالح لخلق شعب عظيم.. وحاكم عظيم..

محاكم التفتيش

من منكم لم يسمع عن محاكم التفتيش . . أبشع ما عرفت الإنسانية من صور القمع والقهر والتنكيل بالمخالفين؟ . . من منكم لم يقشعر بدنه وهو يسمع عن الطغاة الذين جلسوا فى مقاعد القضاة وأخذوا يحاكمون الناس على ما تنطوى عليه صدورهم من عقائد وأفكار مستخدمين فى ذلك الحيل والألاعيب للإيقاع بالمخالفين وانتزاع اعترافاتهم قسرا . . ثم يحكمون عليهم بالموت حرقا على مشهد من الملأ حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه مجرد التفكير فى مخالفة سلطان الكنيسة .

الصفحة السوداء فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى باتت مضرب الأمثال على بشاعة الإرهاب الدينى الذى ساد المجتمعات الأوروبية فأخمد جذوة التفكير . وضرب على العقول بأقفال من حديد ، وانحط بالأخلاق إلى درجة صار فيها الابن لايتورع عن الوشاية بأبيه ، والزوجة بزوجها ، وأشاع الذعر حتى كان الناس يهيمون على وجوههم فى الفلوات رعبا من شبهة الاتهام . وكان المتهمون يتعجلون الموت حرقا فرارا بأرواحهم من فظاعة التعذيب . .

وظلت أسطورة محاكم التفتيش حية فى وجدانى . تؤرقنى فى منامى . وتعذب ضميرى كمثقف يرى من حق كل إنسان أن يفكر ويجتهد ويعتنق الرأى الذى يظنه صحيحا دون المساس بحق الآخرين فى التفكير والاجتهاد . وكانت هذه المحنة الفكرية تحفزنى على الانتصار لقضية الحرية فى شتى صورها . وتدفعنى دفعا إلى الوقوف فى خندق العدالة

دفاعا عن حق الإنسان فى التفكير والقول والعمل. والوقوف فى وجه كل محاولة قهرية تخدش الحقوق الفطرية التى فطر الله الناس عليها . .

حدث كل ذلك دون أن أعرف الظروف التاريخية التى سمحت بظهور هذه الوصمة السوداء فى تاريخ المجتمعات الأوروبية . وكانت معلوماتى عنها مستقاة من تعليقات ترد عرضا فى كتابات المفكرين الأحرار دون أن يتوفر لى مرجع متخصص فى تاريخ محاكم التفتيش حتى وقع فى يدى كتاب « محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها» للدكتور إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس. . وهو كتاب وثائقى يعتمد على الدراسات الأوروبية والأمريكية التى توفرت على فحص ماتبقى من أوراق ووثائق محاكم التفتيش ، وبالرغم من أن أغلب معلوماتنا عن المتهمين الذين حوكموا أمام هذه المحاكم مستقاة من أقلام أعدائهم بعد حرق أوراقهم. إلا أنه بالفحص الدقيق للوثائق أمكن استخلاص صورة دقيقة لهذه الفتنة التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأبرياء الذين كانت كل جريمتهم أنهم ضاقوا ذرعا بالنظم الدينية الفاسدة والمظالم الاجتماعية التى سادت أوروبا فى العصر الوسيط فراحوا يبشرون بقرب انبلاج فجر جديد تتحقق فيه العدالة والحرية والطهارة الفكرية ولم تتحمل سلطات الكنيسة الرومانية وطأة هذه الأفكار الجديدة فراحت ـ تساندها السلطات الحكومية ـ تطارد هؤلاء الأحرار وتدمغهم بتهمة « الهرطقة» وتقدمهم أفواجا أفواجا إلى تلك المحاكم الهزلية لتلقى بهم طعمة للنيران. ثم تصادر أملاكهم وتضم إلى خزانة الملوك. وبذلك صارت الهرطقة « دمغة» يدان بها الناس لاغتصاب أملاكهم، وتكونت من التاج والكنيسة عصابة للنهب والسطو تحت قناع الدين.

● معنى الهرطقة :

وإذا كان من الشائع أن محاكم التفتيش قد ظهرت فى أوروبا فى القرن

الثانى عشر إلا أن البحث فى أضابير الكنيسة الرومانية أثبت أن فكرة اضطهاد الرأى المخالف لرأى الكنيسة أقدم من ذلك وتعود إلى القرن الرابع حيث ظهرت فى آفاق الكنيسة تهمة (الهرطقة) وإلصاقها بالمخالفين تمهيدا لإدانتهم . والهرطقة كلمة يونانية معناها « الرأى المستقل» أو «الاجتهاد» فى فهم النصوص . ومع أن الكلمة طيبة فى مضمونها الأصلى وتعنى استقلال الرأى وحرية التفكير . إلا أن الكنيسة الرومانية استعملت هذا اللفظ لدمغ المخالفين الذين لاتتفق آراؤهم مع تعاليم الكنيسة . وفى هذا الوقت المبكر لم تكن تهمة الهرطقة تؤدى إلى عقوبة الموت. واكتفى آباء الكنيسة بعقوبتى الجلد والغرامة . ولكن مع نهاية القرن العاشر بدأت موجة الاضطهاد للمخالفين تجنح نحو العنف والحرق وسفك الدماء. وفى أثناء ذلك كانت المجتمعات الأوروبية تفور بالتمرد على المظالم الإقطاعية، وأخذت المدن الحديثة فى النمو والتحرر والاستقلال عن سيطرة الأساقفة والنبلاء الإقطاعيين . وكانت الجامعات ترعى الأفكار الحرة وتشجع أبناءها على استقلال الرأى وحرية البحث رغم أنف رجال اللاهوت. وسرت فى أنحاء القارة روح التمرد والغضب وظهرت إرهاصاتها فى الأعمال الأدبية التى كان أشهرها الكوميديا الإلهية للشاعر الفلورنسى الشهير « دانتى» . كما ظهرت روح البحث العلمى فى أفكار روجر بيكون وغيره من علماء الاستنارة العقلية . وكان « دانتى» أحد ضحايا محاكم التفتيش التى حكمت عليه بالنفى عام ١٣٠٢ .

وفى نفس الوقت كانت نقابات العمال والحرفيين تنشد لحن المساواة والتحرر من قيود الإقطاع . وكان من الطبيعى أن تفرز كل هذه التطورات أجيالا جديدة من المتمردين الساخطين الذين عرفوا باسم «الأطهار» أو «الأنقياء» الذين رفضوا حياة البذخ والسفه التى كان يعيش فيها كبار رجال الدين وأمراء الإقطاع وارتفعت فى أرجاء القارة صيحات العودة إلى بساطة المسيحية الأولى ونقائها وزهدها .

واختلطت أفكار « الأطهار » ببعض المعتقدات القديمة التى وفدت على القارة الأوروبية من الشرق كالمانوية والمزدكية والبوذية. وتأثروا بما كانت تدعو إليه هذه الأفكار الشرقية من زهد فى الحياة الدنيا والبعد عن صخب الحياة الاجتماعية. فامتنعوا عن الزواج وبالغوا فى التقشف حتى حرموا على أنفسهم الطعام باستثناء الخبز والماء وتجنبوا لمس النساء. واعتزلوا حياة المدن التى كانت تضج بالثراء والرخاء وما نتج عنهما من انحلال وفجور. وسلك الأطهار فى سبيل ذلك طريقين : أولهما الهرب إلى قمم الجبال والبرارى والانخراط فى جماعات الرهبان، وهؤلاء هم المثاليون المتطلعون إلى المدينة الفاضلة فى ملكوت السماء .

أما الطريق الثانى فكان الانضواء تحت لواء فرق « الهراطقة» وهم جماعات الثوار - وفق مفهوم العصر الحديث - الذين قبلوا التحدى ودخلوا فى صراع رهيب ضد النظم الكنسية والعلمانية المستبدة. وكان يجمع الطائفتين فى صعيد واحد ذلك الضمير المتمرد الساخط. وإن اختلف أسلوب التمرد. وقد تدهش عندما تكتشف أنهم كانوا أقرب الناس إلى جوهر الدين المسيحى وبساطته الأولى قبل أن تتناوله الكنيسة بأساليب الكهانة والوصاية على الأرض . وقد عبر أحد هؤلاء الأطهار عن فكر جماعته بهذه الكلمات: نحن قوم مؤمنون وخدام للملك، ومسيحيون حقيقيون. لسنا نريد أبدا أن نقلد هؤلاء الذين وطئوا بأقدامهم على الإنجيل، أو أولئك الذين نبذوا تراث الرسوليين، إنما نحن ننشد حياة تقوم على الزهد والطهر كما كانت الحال فى الأيام الباكرة للإيمان القويم.

● نظـرة موضوعيـة :

وإزاء هذه الأفكار المتحررة التى تهدد كيان الكنيسة الرومانية من أساسها ، بل وتلغى مبرر وجودها أصلا - يقول الدكتور إسحق عبيد

كان طبيعيا أن تنزعج الدوائر الكنسية فى غرب أوروبا. فهرعت منقضة تستخدم أسلحتها التقليدية من لعنة وقطع وحرمان وحملات صليبية ومحاكم تفتيش إرهابية ضد هؤلاء « الثوار » الذين دمغتهم بالهرطقة لتبرر ضربهم بالحديد والنار، فهل كانت الكنيسة الرومانية محقة فى مسلكها هذا . . أم ظالمة . . ؟

يجيب الدكتور عبيد عن هذا السؤال فيقول : لعل المؤرخ الموضوعى لا يجد غضاضة فى مسلك البابوية والكنيسة فى الدفاع عن كيانها وعقيدتها لو أنها أعطتا المثل الطيب فى سلوكها الذاتى. ولكن واقع الأمر يشير إلى عكس ذلك تماما. لقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى فى وحل الرشوة والدعة والفجور، وبات الفاتيكان بيت سوء . ثم يضرب أمثلة عديدة على الفساد الخلقى لبعض البابوات وانحدارهم فى مستنقع الرذيلة من ناحيتى المال والجنس. ويكفى أن نشير فقط إلى طرف من سيرة واحد من البابوات الفاسدين هو اسكندر بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ باسم البابا « اسكندر السادس» فكانت ولايته على هذا المنصب الجليل نكبة خلقية كبرى. فقد عرف عنه أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداس، وإن اضطر إلى الحضور فإن الصلاة تختصر إلى نصف ساعة، أما عن سلوكه الشخصى فكان سبة فى وجه الكنيسة البابوية، فقد كان مغرما بالنساء، ويحيط نفسه بالراقصات حتى أنه لم يكن ينام فى فراشه بمفرده، وقد أثمرت علاقاته غير الشرعية أبناء لقطاء كثيرين ، ولم يكن البابا اسكندر السادس ـ كما يذكر معاصروه ـ يتورع عن مسلك الفجور فى العلن، بل فى وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة، ولذا فقد أشارت إليه بعض الأصابع بالاعتداء على المحارم، كما اشتهر عنه ـ مثلما قيل عن سلفه سكستوس ـ الولع بالغلمان، مما أعاد إلى الأذهان الطريقة الإغريقية القديمة. أما عن ذمته المالية فحدث ولاحرج، فكان يبيع منصب الكرادلة بالمال، حتى بلغت الرشوة فى هذا

الصعيد مبلغ مليون ومائتى ألف مارك من الذهب، كما اعتاد الاستيلاء على أملاك وأموال الأساقفة الأغنياء عقب وفاتهم، ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التملص منه من معارفه لكى يرث أملاكه، ولم يسلم من هذا الجرم علمانى أو رجل دين فى روما، وكان فى روما صيادلة مرموقون متخصصون فى إعداد هذا السم الخاص الذى ذاع صيته تحت اسم خاص هو «كانتاريللا»، ويروى أن اسكندر السادس (بورجيا) قد أعد هو وابنه قيصر بورجيا السم للتخلص من الكاردينال هادريان، ولكن القدر تدخل فشرب الكاردينال ـ خطأ ـ من الكأس السليم، وتجرع البابا وابنه من الكأس المسمومة، فكانت نهاية هذا البابا الفاسد.

على هذه الشاكلة الذميمة تردى الفاتيكان وسيده وكرادلته، ومن أجل ذلك أخذت صيحة الإصلاح تعلو إلى عنان السماء تطالب بالتغيير، وتبشر بفجر جديد، ولم تفلح أساليب الإرهاب والقمع فى ظل محاكم التفتيش فى تعطيل مسار التاريخ والانعتاق من أغلال الكنيسة الرومانية.

● قيـام محـاكم التفتيش :

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن قيام محاكم التفتيش على أيدى البابا لوسيوس الثالث ثم البابا انوسنت الثالث فى عام ١٢١٥. فكان المتبع أن تقبض السلطات الكنسية « للتفتيش» على المتهم ـ أى تقصى أفكاره ومعتقداته ـ وتحاكمه، فإن تمت إدانته يسلم إلى السلطات الأمنية لإحراقه بالنار، وكان تشكيل محكمة التفتيش على الوجه الآتى :

المفتش الكنسى مفوض من قبل البابوية، ومنها يستمد صلاحياته فى الربط والإدانة، وهو أشبه ما يكون بالقاضى، وتكون المنطقة التى يقوم بالتفتيش عليها خاضعة لأوامره دون تدخل من أساقفتها أو أمرائها الإقطاعيين أو قضاتها المدنيين. والمفتش الكنسى هو الذى يوجه

الاتهام، ويحكم فى القضايا، ويصدر الإدانة وكان يعاون المفتش العام نفر من المتخصصين هم نائب المفتش والمسجل القانونى . والمستشار القانونى. والمحلفون. وتستعين المحكمة بعدد من الضباط والمخبرين والسجانين، ويلعب المخبرون دورا خطيرا فى مهام المحكمة، فهم يسافرون متنكرين لتعقب « الأطهار » الهاربين والاختلاط بهم ثم يعودون إلى المحكمة لكتابة التقارير ضد المتهمين.

ولوحظ أن نفرا قليلا من هؤلاء المفتشين كانوا « أطهارا» سابقين ثم تنكروا فيما بعد لمبادئهم وعين بعضهم فى منصب المفتش العام لإرهاب الجماعة . فكانت البابوية فى هذا فى غاية الدهاء. إذ إن مثل هؤلاء «المرتدين» كانوا على علم بخفايا جماعاتهم وبممارساتهم الخفية قبل العلنية فكانوا أشد وطأة على زملائهم السابقين.

وكان سير المحاكمة يبدأ بوصول محكمة التفتيش إلى المنطقة التى تشير التقارير إلى وجود « الأطهار» فيها.

ويفتتح المفتش أعماله بإلقاء عظة عامة على مسامع أهل البلدة . يدعو فيها من تساوره أفكار مهرطقة إلى المبادرة بالاعتراف والندم طواعية أمام المحكمة، ويمهل هؤلاء لمدة شهر. وعرفت باسم « مهلة الرحمة والغفران». ومن يتقدم طواعية للاعتراف يحكم عليه بحكم مخفف من الصيام وإعلان التوبة بشرط أن يكون ممن يعتنقون آراء مهرطقة غير معلن عنها جهارا.

أما الذين عرف عنهم الجهر بالهرطقة فيحكم عليهم بالسجن المؤبد . وأما المكابرون الذين لايقدمون للاعتراف أمام المحكمة فإنهم يستدعون إلى المحكمة عن طريق رجل الدين المنوط بالمنطقة، فإذا هرب تعقبته أجهزة المحكمة حتى يقبض عليه، ثم يواجه المحكمة بأن يؤدى قسما على الأناجيل الأربعة بأن « ينطق بالحق عن نفسه وعن غيره من الأحياء ومن الأموات على حد سواء » .

ولكل فئة مهرطقة أسئلة خاصة معدة مسبقا عند المفتش . . وطبيعة فكر هذه الفئة أو تلك بالذات . . وعلى المفتش أن يمكر ويراوغ مع المتهمين حتى يحصل منهم على مايريد من اعتراف . فهو تارة يخاطبهم بأسلوب معسول . ويلوح لهم بوعد من الغفران والصفح ، وقد يأمر لهم بطعام فاخر وقت احتجازهم للتحقيق . وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش فى جر الأب لأن يشهد على ابنه ، والابن على أبويه . . والزوج ضد زوجته ، والزوجة على رجلها . وتحتفظ سجلات محاكم التفتيش برسالة من البابا جريجورى التاسع يهنىء المفتش العام على نجاحه المنقطع النظير فى إرهاب الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم .

وشهدت محاكم التفتيش أطفالا فى سن العاشرة يشهدون ضد آبائهم وإخوتهم ، ويكفى للإدانة ضد المتهم شهادة شاهدين أو ثلاثة على أكثر تقدير . وفى أغلب الأحيان لايواجه المتهم بالشهود . . !! حفاظا على سلامة صاحب الشهادة .

● **حق التعــذيب :**

ولمحكمة التفتيش الحق كل الحق فى أن تستخدم أساليب الإرهاب والتعذيب لكى تحصل من المتهم على الاعتراف بإثمه ، ومن قبيل ذلك احتجاز المتهم فى سجن خشن ضيق حيث يقيد بالأغلال ويحرم من الطعام والشراب والنوم فى زنزانات خانقة لا تكاد تسمح مساحتها لمجرد الوقوف على القدمين . وقد جرى المثل بين رجالات محكمة التفتيش بأن «البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف» . فإذا فشلت الأساليب السابقة . لجأت المحكمة إلى درجات أشد وأقسى . . وقد اكتسبت هذه الأساليب شرعيتها من خلال المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الرابع فى ١٥ مايو

١٢٥٢ وأقر فيه أسلوب التعذيب. وصدق على هذا المرسوم خلفاؤه. ومن هذه الأساليب تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط. ومنها دفع المتهم إلى مكان عال ثم الرمى به ليهوى على الأرض، ومنها الكى بشعلة نار ملتهبة، ومنها طرح المتهم على منصة فى وضع مثلث مع ربطه بحبل يلتف عقدا حول جميع أعضاء جسده.. وينتهى الحبل المعقود برافعة تلم كل الشمل فإن لمست الرافعة رضرضت أعضاء الجسم الموثق. وقد تمزقها تماما. وقد يوثق المتهم وساعداه مقيدان وراء ظهره ثم يرفع إلى ربوة عالية. ومنها يركل ليسقط على الأرض، وأحيانا كانت تربط الأثقال فى قدمى المعذب الموثق حتى يكون سقوطه مروعا ومرديا.

وعرف من وسائل التعذيب أيضا تعريض قدمى المتهم - بعد طلائهما بالشحم - إلى نار ملتهبة، وبعد جرعة من هذا المس بنار جهنم يسدل ساتر من الحديد لحجز اللهب عن قدمى المعذب. وهنا يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف من المتهم. وفى كثير من الأحيان كان المتهم يموت من العذاب والإرهاب قبل أن يدلى باعتراف ما للمحكمة.

والقصص وفيرة عن أبطال تحملوا هذا العنت والجرم دون أن تنبس شفاههم بصرخة أو حتى مجرد اعتراف.. والغريب فى الأمر بعد كل هذا - أن المحكمة تسجل فى سجلاتها أن المتهم أدلى باعترافه طواعية ودون تعذيب على الإطلاق. وبعد هذه الإجراءات تصدر المحكمة حكمها فى مكان عام من البلدة بفم المفتش وكانت أغلب الأحكام بالموت حرقا.

وينبه الدكتور إسحق عبيد إلى أن الكنيسة الرومانية كانت فى غاية الدهاء لأنها بعد أن تصدر الحكم على المتهم تعهد إلى السلطات الحكومية لتقوم بتنفيذ الإعدام حتى توهم البسطاء بأنها قد غسلت يديها من دم الضحايا.

ولم تكن محاكم التفتيش تقنع بهذه العقوبات على المتهم. وإنما كانت العقوبة تمتد إلى أولاده وإلى جيرانه. فكانت أحكام مصادرة الأملاك

والأموال تحرم أبناء المتهم من وراثة أبيهم حتى لو كانوا أبرياء من تهمة الهرطقة، كذلك لجأت البابوية إلى هدم منازل الهراطقة والمنازل المجاورة لها. خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهرطقة (!!).

ولكن البابا اسكندر الرابع تراجع عن هذا القرار عندما اكتشف أنه سيؤدى إلى هدم قرى ومدن بأكملها. وأخيرا لجأت محاكم التفتيش إلى إحراق جثث الموتى من المهرطقين خشية أن يصاب المكان الذى يضم رفات الهرطيق بالدنس، ومن ثم تقرر أن يكون الهرطيق وقودا للنار، ونحن نعلم أن قبورا عدة قد نبشت وأن جثثا كثيرة قد أهينت حرمتها فى الطرقات وسط قرع الطبول ولهيب المحرقة..!!

● زواج غير مقدس:

كانت وصمة محاكم التفتيش نتاج زواج غير مقدس بين الكنيسة الرومانية، وملوك أوروبا، وقد اتفقت إرادة المؤسسة الدينية والمؤسسة الزمنية على إخماد أصوات التحرر والتمرد، وكبت صوت المعارضة الفكرية، واقتسام الغنيمة بعد مصادرة أملاك الضحايا، واستباحة أموالهم وممتلكاتهم وتوزيعها على الفرسان والبارونات المفلسين الذين كانوا يتلهفون على تملك الأراضى المصادرة. ويعنينا من هؤلاء الملوك لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية على مصر، وتمت هزيمته فى المنصورة، ويصفه الدكتور إسحق عبيد بأنه كان أسوأ حاكم علمانى شجع على تثبيت أقدام محاكم التفتيش لكى يرضى بابوات روما، وقد أوكل مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومينيكان الذين أرهبوا صغار القسيسين وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم وأرسلوا إلى المحرقة أعدادا لا تحصى بتهمة الهرطقة.

وقد شمل لويس التاسع، وأمه بلانش القشتالية، مفتشى تلك المحاكم بالعطف والحماية، وخول الملك الفرنسى رجلا يدعى (روبرت

لى بتى) صلاحيات طائلة كمفتش عام، والغريب فى الأمر أن هذا الرجل كان فى الأصل هرطيقا سابقا، ثم انقلب على زملائه وشنق منهم ١٨٣ نفسا دفعة واحدة فى مقاطعة شامبانى وحدها.

أما ملك فرنسا فيليب الرابع (الجميل) فقد انفتحت شهيته للاستيلاء على أموال فرقة الداوية Templiers الذين شاركوا فى الحملة الصليبية على الشرق الإسلامى، وعادوا إلى موطنهم فرنسا بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ م فى يدى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وكانوا قد جمعوا أموالا طائلة من مغامراتهم الصليبية حتى صاروا من أغنى الجمعات الدينية فى فرنسا، ويقال إنهم استثمروا أموالهم أيضا فى عمليات الربا، وسال لعاب فيليب الجميل على أموال (الداوية) المعروفين باسم فرسان المعبد، خاصة وقد كان بينهم ألفان من خيرة الفرسان لايخضعون للتاج الفرنسى، ولجأ فيليب الملك إلى أحط الوسائل للسطو على أموالهم، فكلف وزيره (نوجارت) بتلفيق الاتهامات ضد جماعة الداوية كى يستصدر قرارا من البابا للقضاء عليهم تماما ومصادرة أملاكهم وأموالهم، ونفذ الوزير مطلب الملك، وأعد قائمة بالاتهامات والأدلة الملفقة ضدهم، وبعث الملك بالقائمة إلى البابا كلمنت الخامس مع طلب بإصدار مرسوم بابوى بإدانة هذه الجماعة واستحلال أموالها، وقام نوجارت بالقبض على كل أفراد الداوية وأودعهم السجن، ثم أذاع قائمة اتهامهم بالهرطقة وعبادة الشيطان والانحلال الخلقى والفجور، وتعرض الرهبان لصنوف من التعذيب داخل زنزاناتهم، إلى حد أن واحدا من أبناء الداوية عندما بلغ به العذاب مداه صاح مستغيثا: «إننى على استعداد لأعترف لكم بأننى قد قتلت الله، شريطة أن تكفوا عن تعذيبى وترحمونى من الإحراق بالنار».

المرأة الحديدية

لا أتصور مواطنا فى عالمنا المعاصر لم يسمع بهذه العبارة « أيتها الحرية . . ما أكثر الجرائم التى ترتكب باسمك . . » ولا أظن إنسانا خاض بحر السياسة لم يردد هذه العبارة وهو يرى أعلام الحرية تسقط وتداس بأقدام من رفعوا لواءها من قبل . . ويرى أرواح الأحرار تزهق، ورءوسهم تسحق بأيدى السفاحين الذين لبسوا يوما رداء الحرية ورددوا شعاراتها . . وارتفعت حناجرهم بحياتها . . ثم أصبحوا من ألد أعدائها . . وأفجر خصومها . .

فمن قائلة هذه العبارة . . ؟ ولماذا هتفت بها . . ؟ وما هى الظروف التى جعلتها تصرخ بهذه الصيحة فأصبحت من أشهر عبارات القاموس السياسى . . وجرت فى التاريخ مجرى الأمثال . . ثم . . كيف تكون الحرية مصدرا للجريمة مع أنها الوعاء المقدس الذى تتخمر فيه ثلاثية القيم العليا التى تهفو إليها الإنسانية وأعنى بها قيم الحق والخير والجمال . . فليس من المتصور أن يكون الحق مصدرا للظلم . . كما يستحيل أن يكون النور مصدرا للظلام . . ولا يمكن أن يثمر الخير شرا . . والجمال قبحا . . ولكن كل تلك القيم الرفيعة تتحول إلى أضدادها على أيدى زمرة من البشر أشبه بالحواة يملكون القدرة على تزييف الحقيقة . . ومسخ الجمال . . وتشويه الخير . .

صاحبة تلك العبارة التاريخية هى « مدام رولان» أغرب امرأة فى تاريخ

. . .

الثورة الفرنسية . . وإحدى أشهر ثلاث نساء حزت المقصلة أعناقهن الناعمة . . أما أولاهن فهى الملكة نفسها . . مارى انطوانيت . . والثانية كانت الفدائية شارلوت كورداى التى اغتالت وحش الثورة المفترس «ماراه» لتخلص الناس من شره ، والثالثة مانون مارى جان فيليبون . . أو مدام رولان صاحبة الصيحة الشهيرة عن الجرائم التى ارتكبتها الثورة باسم الحرية . . والتى هى موضوع حديثنا . .

لم تكن مدام رولان رائعة الحسن والجمال . . ولكنها كانت سيدة مثقفة شغلتها هموم السياسة وفنون الأدب وقضايا الفكر عن اهتمامات بنات جنسها . . فمنذ صباها الباكر استوعبت آثار رواد الفكر الفرنسى الحديث الذين بشروا بعصر الحرية والمساواة والعدالة ورحلوا قبل سنوات من اشتعال الثورة ، وكأنما أشفق عليهم القدر فأماتهم قبل أن يروا أفكارهم وهى تستخدم فى أيدى قادة الإرهاب كمعاول لسحق الحرية وهدم المساواة ومسخ العدالة ، وإذا بالثورة التى بشروا بها تتحول إلى مجزرة كبرى لم تشهد لها البشرية مثيلا من قبل . . والمؤسف أن مدام رولان التى شغفت فى صباها بأفكار روسو فاعتنقتها عن إيمان وعقيدة ، والتى عاشت تحلم باليوم الذى تتحول فيه هذه الأفكار الرائعة إلى حقائق ملموسة . . ألقت بنفسها فى أتون الثورة بكل ما تملك من عواطف المرأة وجنوحها وتهورها . . وأصبح صوتها من أشد الأصوات تطرفا وعنفا . . وجرفها تيار الإرهاب الذى جنحت إليه الثورة فمضت فيه بلا تردد . . ولم تتخيل أن تحترق بالنار التى ساهمت فى إشعالها . . وأن تمضى على نفس الطريق ـ إلى المقصلة ـ الذى دفعت إليه آلاف الضحايا الأبرياء باسم الحرية والعدالة والمساواة . .

جاءت مانون من بلدتها ليون إلى باريس فى فجر الثورة بصحبة زوجها مسيو رولان ، وكان رجلا مشوها يثير من السخرية أكثر مما يثير من الاحترام ويكبرها بعشرين عاما ، وقد تزوجته لا عن حب ، ولكن ليكون

ظلا تحتمى به من كلام الناس وهم يرونها تخوض مجالا مثيرا للريب والشكوك، وسرعان ماتحول بيتها فى باريس إلى صالون يرتاده الشعراء والأدباء ورجال السياسة وكل العناصر المتطرفة التى يحرقها الشوق إلى عصر جديد ولا ترى سبيلا إلى غايتها غير الدم. والتقت أهداف مدام رولان مع أهداف أعضاء الجمعية الوطنية من حزب (الجيروند) الذين وجدوا فيها مصدر إلهام لكل ما كان يختمر فى أذهانهم من رغبة فى هدم النظام القديم، وقيام عهد جديد على الأسس التى أرساها آباء الفكر الفرنسى: فولتير وروسو ومونتسكيو وأصحاب الموسوعة.. ولكن أزمة هؤلاء (الجيروند) أنهم كانوا مثل صاحبتهم أقرب إلى شعراء العصر الرومانسى منهم إلى السياسيين الذين عركتهم التجارب، وصقلتهم المحن، كانوا رجال فكر وقانون وبلاغة وشعر وحماسة هوجاء.. يعتلى أحدهم المنبر هادئا رزينا.. ثم لا يكاد يلقى بعض العبارات المنمقة حتى تلتهب حماسة الجماهير. ثم لا يلبث صاحبنا أن يفقد رزانته واعتداله وينساق وراء تصفيق الدهماء فيتحول إلى شعلة حماس تدعو إلى التدمير والقتل، وإذا بالجيروند الذين كانوا دعاة الحرية والعدل يتحولون إلى دعاة للإرهاب والتهور والعنف، دون أن يدركوا مغبة الطريق الذى شقوه بأنفسهم.. أو إن شئت الدقة فإنهم لم يدركوا عمق المقبرة التى حفروها لأنفسهم.

وقف أحدهم يوما يهيب بنواب الأمة أن يخوضوا بحر الدم فقال : «إن الحرية شجرة لاتنبت إلا إذا رويت بالدم، فابتروا العضو الفاسد منكم ليظل باقى الجسد سليما» ولم يعلم هذا النائب الأهوج أن هذه العبارة ستكون سلاحا يستخدم فى بتره وبتر إخوانه حين ساقهم خصومهم ليبتروهم بسكين المقصلة وليرووا بدمائهم شجرة الحرية!!

واشتط أحد زعمائهم فى سبيل إثبات مؤامرة لم ينهض على المتهمين فيها دليل فقال : « هل للذين يأبون الحكم إلا بعد قيام الدليل أن يقولوا

لنا متى كانت المؤامرات تدون فى المحاضر والأوراق . . ؟» فأصبحت قولته الفاسدة مبدأ استخدمه الخصوم فى تصفية الجيروند . ولم يمض عامان حتى كان الجيروند يقفون أمام محاكم الثورة ، فإذا قال أحدهم : وأين الدليل على مؤامرتنا؟ رد عليه رئيس المحكمة « ليس عندى دليل لأن المؤامرات لاتدون فى المحاضر والأوراق» .

وزعيمهم « بريسوه» هو القائل فى تبرير الإرهاب « إن الوطن فى خطر لايحتمل بطء الإجراءات ، فلتمض العدالة سريعة وكل خطأ تقع فيه مغفور» ولقد حفظها لهم خصومهم حتى إذا وقفوا موقف الاتهام وصاحوا مطالبين بالشهود ، قال لهم رئيس المحكمة الثورية وهو يبتسم إن الخطر المحيق بالوطن لايحتمل بطء الإجراءات» .

وهكذا قضى على هؤلاء التعساء أن يشحذوا السكين التى سوف تحز أعناقهم وأن يوقدوا النار التى سوف تلتهمهم ، فيذهبوا ضحية افتتانهم بالعبارات الخلابة الملتهبة وانسياقهم وراء عواطف الدهماء ، وتخليهم عن مبادئ الحق والحرية التى درسوها فى الكتب . ونسوها فى الواقع .

ولم يكن (الجيروند) وحدهم ملوك الساحة عندما اندلعت نار الثورة وامتد شواظها إلى كل أنحاء فرنسا كان هناك (اليعاقبة) أحط إفرازات الثورة عنفا ووحشية ، ولكنهم لم يجرءوا على الإفصاح عن أنفسهم إلا بعد أن مهد لهم (الجيروند) طريق الإرهاب ، فقد ظلوا قابعين فى ناديهم كالوحوش الكاسرة تتلمظ وتتحين ساعة الانقضاض . . فجاء الجيروند بغبائهم ففتحوا لهم الباب لينقضوا على الثورة ويجعلوا منها مجزرة لم يشهد التاريخ مثيلا لها فظاعة وفجرا . . ورغم أن (اليعاقبة) لم تكن لهم الشهرة الجماهيرية التى كانت للجيروند . . ولم يكن لهم من الأعضاء فى البرلمان مايوازى نواب الجيروند . . إلا أنهم كانوا يتميزون بقوة التنظيم ، ودقة الحركة ، واختيار الوقت المناسب للانقضاض ، تراهم فى أعلى المقاعد فى نهاية الطرف اليسارى من قاعة الجمعية التشريعية مثل النسور تعتلى قمة

الجبل . . ومن هنا اكتسبوا اسم (حزب الجبل) . . ومن هنا اكتسب اليسار مفهوم التطرف فى القاموس السياسى منذ ذلك الحين . . هنا يجلس زعماؤهم متجاورين متماسكين . . دانتون وماراه وكميل ديمولان وسانجوست . . ثم زعيمهم الرهيب روبسبير الذى أصبح رمزا على الإرهاب فى كافة العصور والأزمان . . وكلهم من العناصر البشرية التى أشربت قلوبها حقدا على البشرية . . وعلى كل ما هو جميل ونبيل فى الحياة . . وعلى أيدى هذه الوحوش الفاتكة تحولت الثورة الفرنسية من جهاد فى سبيل الحرية إلى طغيان منظم ساد فيه الظلم ، وضاع فيه الحق ، وانتشر الذعر والهلع والرعب ، وذهب الأمن وانمحت معالم الحرية ، وارتفع لواء البطش وصارت الكلمة للطغاة والجبابرة والغلاة والمتاجرين بعواطف الشعب ، وسذاجة الدهماء ، واستحالت فرنسا على أيديهم جحيما وقوده الناس ، وزبانيته قادة الرأى الذين خانوا حرية الرأى ، وزعماء الإصلاح الذين تنكروا لمبادئ الإصلاح ، وسدنة الحرية الذين داسوا الحرية بالنعال .

● نهاية الملـك :

إن الجريمة التى ارتكبها (الجيروند) فى تاريخ الثورة الفرنسية لاتقل بشاعة عن جريمة (اليعاقبة) . . لأن الذى يمهد الطريق إلى الإرهاب لا يقل إجراما عن فاعله .

ولقد كان (الجيروند) بمثابة المقدمة الأولى التى فتحت الباب على مصراعيه أمام قادة الإرهاب الدموى ، وكان مصير الثورة بأيديهم فى مراحلها الأولى ، وكان بإمكانهم أن يحافظوا على مسارها المعتدل لو أنهم تمسكوا بمبادئهم الأصيلة ولو لم ينساقوا وراء عواطف هذه المرأة الغريبة التى وضعتها المقادير فى طريقهم فأسلموها زمامهم . . فأسلمتهم إلى المقصلة . . وكانت محاكمة الملك لويس السادس عشر اختبارا لحنكة

الجيروند وكانوا فى قرارة أنفسهم يميلون إلى النظام الملكى ويرونه أفضل من الجمهورية . . وفضلا عن ذلك كانوا يؤثرون الحفاظ على نقاء الثورة فلا تتلوث بدماء الملك . . وكان أشد الثوريين تطرفا لا يفكرون فى أكثر من إيجاد حكومة ملكية دستورية عادلة . . ولكن مادام رولان كانت أكثر تطرفا من كل الرجال . . ! وترى أن مجد فرنسا لن يتحقق إلا بإعدام الملك . . ولا تتحرج أن تعيب على زملائها « إنكم تشتغلون بالصغائر وتدعون الرأسين الكبيرين (الملك والملكة) يفلتان من أيديكم ليدبرا شقاء الوطن ومحنة البلاد . . ألا حسبكم ما فرطتم حتى اليوم . . وها هى ذى العظائم تناديكم فاعملوا على محاكمة الطاغيتين الملك والملكة) . وإلا فأنتم صبيان كبار . . » .

هكذا استطاعت مدام رولان أن تكون القوة المحرضة على قتل الملك دون حساب لما سوف يجره هذا العمل على فرنسا من انتقام الدول الأوربية الملكية التى كانت ترى فى قتل لويس السادس عشر عدوانا على الأنظمة المالكة . . فهل كانت مدام رولان على قدر كاف من الذكاء عندما استفزت رجولة زملائها (الجيروند) ودفعتهم إلى التصويت ـ رغما عنهم ـ إلى جانب إعدام الملك . . ؟ وهل كان لويس السادس عشر يستحق هذه النهاية التى حفرتها له مدام رولان . . والتى كان لها أثرها الكبير فى تحويل مجرى الثورة من السلم إلى الحرب . . ومن الاعتدال إلى التطرف والإرهاب .

إن مؤرخى الثورة الفرنسية يجمعون على أن لويس السادس عشر لم يكن أسوأ ملوك البوربون ، بل كان ضحية المفاسد التى ارتكبها آباؤه وأجداده وإنه شخصيا كان يتحلى بصفات خلقية حميدة أهمها التدين والطيبة . . فيقول المؤرخ (مينيه) فى كتابه عن الثورة الفرنسية تعليقا على إعدام الملك :

« وهكذا هلك فى سن التاسعة والثلاثين ملك من أفضل الملوك ،

وإن كان فى الوقت نفسه، من أضعفهم ، وذلك بعد حكم استمر ست عشرة سنة ونصفا ، قضيت فى فعل الخير، لقد أورثه آباؤه وأجداده الثورة ، أما هو فكان أكثر من أى واحد منهم صلاحية وقدرة على أن يمنع اندلاعها أو أن يعمل لإنهائها إذا اشتعلت ، حيث كان بوسعه قبل نشوب الثورة أن يكون ملكا مصلحا ، أو أن يصبح بعد قيامها ملكا دستوريا ، وهو يكاد أن يكون الملك الوحيد الذى لا أطماع له ولا شغف أو ولوع بالسلطة ، والذى يجمع فى شخصه بين السجيتين اللتين تصنعان الملوك الصالحين : الخوف من الله . . وحب الشعب .

لقد ظلت رقبة الملك ـ أثناء محاكمته ـ معلقة على كلمة « الجيروند» بحكم أغلبية أصواتهم . . وكانت كلمة « الجيروند» معلقة بإرادة مدام رولان . . ولكن حظ الملك كان سيئا إذ كان يحظى بكمية هائلة من بغض مدام رولان ، ففقد حياته بسبب كيدها وتدبيرها وحشدها أغلبية الأعضاء للتصويت فى جانب إعدام الملك . . وظنت المرأة الحديدية أن الأمر قد استتب لحزبها بعد سقوط الملكية ، وأن أمر فرنسا سيئول إليها ، وباتت تمنى نفسها بحكم البلاد مستترة وراء أصدقائها « الجيروند» . . ولكن اليعاقبة الذين تصاعد نجمهم بعد إعدام لويس كانوا لها بالمرصاد . . وقر عزمهم على الخلاص منها ، وتولى دانتون ـ زعيم اليعاقبة ـ تدبير خطة الانتقام ، وبدأت الخطة بتدبير حملة صحفية لتشويه سمعة الزعيمة المتسلطة وزوجها المخدوع ، واتهمته بالعجز عن إرضاء مطالبها الزوجية ، فأرخى لها العنان لتبحث عن المتعة من أى سبيل . . وانطلقت الصحف تنال من عفاف مدام رولان وسمعتها وشرفها وهى لا تملك القدرة على رد هذه السهام المحمومة . . وفى تلك الأثناء (سبتمبر ١٧٩٢) وقعت فى باريس مذبحة بشعة حيث انطلق الدهماء يهاجمون قصور النبلاء والكنائس والسجون الخاصة بالمعتقلين ، وانهالوا عليهم ذبحا وتقتيلا . . ثم هاموا فى الشوارع يدمرون المتاجر وينهبونها ويقتلون كل من يصادفهم من المارة . . وكانت مذبحة راح ضحيتها الآلاف ،

فهاجت الخواطر . . وانتهزتها مدام رولان فرصة لتصب حقدها على خصمها العتيد دانتون وتتهمه بتدبير هذه المذبحة البشعة . . وكأنما أفاقت المرأة الدموية من غفوة التطرف التى طالما حركتها . . فأخذت تستنكر الإرهاب ، وتقول إن الثورة التى أحبتها وتفاخرت بالمشاركة فيها قد أصبحت سبة لفرنسا وعارا للقائمين بها . . وتتهم اليعاقبة بأنهم أفسدوا الثورة وحولوها عن أغراضها السامية وجعلوها أداة فتنة ملطخة بالأقذار .

● فى الطريق إلى المقصـــلة :

وكان لابد أن ينتهى هذا الصراع العلنى بانتصار اليعاقبة على خصومهم الجيروند وزعيمتهم الفولاذية . . فقد كانت الثورة قد مضت فى طريق الإرهاب إلى ما لا نهاية . . وأصبح لهم فى الجمعية الوطنية أغلبية تسمح لهم بإرسال خصومهم إلى المقصلة . . وحان الوقت الذى رأى فيه قادة الإرهاب أنه لاتراجع عن القضاء على مدام رولان وزمرتها . . وبدأ تنفيذ الخطة بأن وقف (دانتون) فى المجلس العرفى الحاكم يتهم الجيروند صراحة بالخيانة العظمى ، ويزعم أنهم ما صوتوا على إعدام الملك إلا تحت تأثير الخوف من الرأى العام ، وإنهم حاولوا إنقاذ حياته بعد الحكم عليه بالتصويت لوقف التنفيذ ، وأعقبه (ماراه) فرماهم بتهمة التآمر على أمن الوطن وسلامة الجمهورية وإثارة الأقاليم ضد العاصمة بغية إشعال نار الحرب الأهلية وإحباط الثورة ، وتلاه (روبسبير) فطالب بوجوب تطهير البلاد من الخونة الذين يتظاهرون أمامها بالحب والوطنية وهم يضمرون السوء والبغضاء وطالب بإحالتهم جميعا إلى محكمة الثورة ليلقوا جزاء ما اقترفوا فى حق الوطن من آثام ، وما هى إلا أيام حتى كانت ثلة من الجند تقتحم قاعة البرلمان وتلقى القبض على ٢٤ من النواب «الجيروند» الذين كانوا يتمتعون بالحصانة البرلمانية(!!) حيث سيقوا إلى المقصلة . .

وكان لابد أن تنتهى أسطورة مدام رولان كما انتهت كل الأساطير التى أفرزتها الثورة، وسقطت مدام رولان مع الحزب الذى ارتفع بها إلى ذروة الجاه والنفوذ. . ثم هوى معها إلى حضيض الذل والهوان لقد كانت نهاية مؤلمة وصمت تاريخ الثورة الفرنسية بالخزى والعار. . وإليك مشهد النهاية كما سجله بقلمه المبدع أديبنا المصرى الكبير المرحوم حسن بك الشريف فى كتابه : مناظر ومشاهد من الثورة الفرنسية الكبرى :

● **نهاية المهزلة :**

أحست مدام رولان منذ قبض على أصدقائها السياسيين أن حياتها باتت فى خطر وأن أعداءها يتعقبونها بحقدهم وبغضائهم، وازدادت يقينا بهذا الخطر عندما صدر قرار المجلس الوطنى بالقبض على زوجها تمهيدا لمحاكمته هو الآخر على جرائم من النوع الذى أطاح برؤوس إخوانه. ولقد كان فى استطاعتها أن تحذو حذو زوجها فتفر وتنجو بنفسها، ولكن يظهر أن النكبة التى أصابت أصحابها وأحباءها، والفشل الذريع الذى منيت به سياستها وآمالها، والمصير المحفوف بالأهوال الذى كان ينتظر البقية المشردة من أولئك الشبان الأمجاد، يظهر أن كل ذلك زهدها فى الحياة ورغبها عنها، وجعلها تلبث حيث هى، حتى تتم آية الله فيها فتذهب غير آسفة على شيء.

وكان ما توقعت، وأمرت السلطات بالقبض عليها وتقديمها إلى المحكمة الثورية بتهمة الاشتراك مع زوجها وغيره من الذين ثبتت خيانتهم، فى التعريض برجال الجمهورية وتسويئ سمعة الثورة وما إلى ذلك من التهم المبهمة الغامضة التى لاتفيد شيئا معينا، ولكنها على كل حال كفيلة بإرسال صاحبها إلى المقصلة.

ولقد حاولت أن تدافع عن نفسها أو تدفع الإهانات التى وجهت إلى عفافها وعرضها، ولكن القضاة قطعوا عليها سبيل الكلام وحكموا عليها

بالإعدام، فقابلت الحكم الرهيب بجنان ثابت وصاحت في وجوههم: «أما وقد رأيتموني جديرة بأن أشاطر أولئك الرجال العظام الذين قتلتموهم مجد منيتهم وعظمة نهايتهم، وأن أسير معهم في الطريق الذي شقوه لأنفسهم إلى الخلود، فإنني سألقى الموت شجاعة كما لقوه» .

وكانت قد انتهزت أوقات فراغها في السجن لكتابة مذكراتها فجاءت هذه المذكرات تحفة تاريخية جديرة بالتأمل والتفكير، فياضة بالعبر والعظات، فلما صدر الحكم عليها، وعادت إلى السجن تناولت القلم وخطت السطر الأخير منها فقالت : « أيتها الطبيعة افتحي لي صدرك واحتويني ، ويأيها الإله الرحيم تقبلني في جوارك» .

وفي اليوم التالي ساروا بها إلى ساحة الإعدام فسارت إليها هادئة باسمة تحيي الجماهير من فوق مركبها وتومىء إلى الذين تعرفهم إيماءة الوداع فلما بلغت تمثال الحرية المنصوب في ميدان الثورة رفعت صوتها عاليا وصاحت صيحتها الشهيرة التي أثرت عنها: « أيتها الحرية، ما أكثر ما يرتكب باسمك من الآثام» .

وكان زوجها رولان قد اختفى في مدينة روان ولبث مختبئا أشهرا طويلة. فلما علم بموت امرأته غادر مخبأه وهام على وجهه في الفلاة. ويظهر أن خيبة آماله والكوارث التي أثقلت كاهله زهدته هو الآخر في الحياة، ففي صباح اليوم التالي لإعدام مانون وجده بعض الفلاحين ملقى على وجهه في حقل، فلما حركوه ألفوه جثة هامدة ووجدوا في يده المقفلة ورقة كتب عليها : « لم أطق صبرا على حياة في أمة لم يبق فيها أثر من المبادىء السامية التي عشت حتى اليوم من أجلها. فأموت راجيا لبلادي أن تزيح عن صدرها ذلك الكابوس الذي يخنقها وأن تثور يوما على المظالم التي ترتكب فيها لتحيا حياة حرة سعيدة» .

وفي تلك الأثناء كانت شرذمة من الرجال يهيمون على وجوههم في شمال فرنسا مهلهلي الثياب قذرى الأبدان مرسلي اللحى، قد فارقت

وجوههم نضرة الشباب وعلت سيماهم وعثاء التجوال وأنهكت قواهم أهوال المطاردة ومشاق التخفى والفرار، أولئك هم بقية نواب الحزب الجيروندى الذين انسحبوا من قاعة المجلس الوطنى قبل صدور القرار بالقبض عليهم . ولقد لجئوا إلى مدينة بوردو للغرض عينه، فكان الفشل نصيبهم أيضا . فلما حاولوا الارتحال عنها وقع اثنان منهم فى قبضة الشرطة التى كانت تطاردهم فأرسلا إلى المقصلة ولحقا بزملائهما السابقين .

ولقد نجح الباقون فى الفرار وظلوا يختبئون فى الآبار ويبيتون فى الغابات ويسكنون الأقبية والسراديب، إلى أن كانت ليلة ظنوا فيها أن العسس داهمهم، فأرادوا أن يقضوا على أرواحهم بأيديهم وأخرج كل منهم غدارة وأطلقها على نفسه فمات منهم من مات، ومن ظلوا جرحى يعانون سكرات الموت أبت السلطات الثورية أن تدعهم يموتون ميتة غير رسمية فأرسلتهم إلى النطع ليقضوا كما ينبغى أن يقضى كل من قاوم الظلم ورفع رأسه فى وجه الطغاة!» .

الإرهاب الثوري

كانت الثورة الفرنسية زلزالا أدى إلى هدم النظام القديم فى فرنسا وكل أوروبا ، وكانت الثورة بأحداثها الجسام أشبه بلحظة فاصلة من لحظات التاريخ، فقد ختمت على العصور الوسطى التى طالت وشغلت من تاريخ أوروبا مايزيد على ألف سنة، وهدمت الثورة معالم الإقطاع والحكم المطلق والامتيازات الطبقية، وفتحت أمام العصر الحديث باب الديمقراطية السياسية والحرية الاقتصادية والاستنارة العقلية وعملت على ظهور الدول القومية التى شكلت خريطة أوروبا الجديدة .

وكانت الثورة الفرنسية فى بعض مراحلها حركة بناء وتغيير، كما كانت فى بعض مراحلها حركة دمار وتخريب، ولكن من المسلم به بين مؤرخى الثورة أنها حين قامت لم يكن أحد فى فرنسا يفكر فى هدم النظام القائم واقتلاعه من جذوره، بل لم يكن أحد يفكر وقت اندلاعها فى إلغاء الملكية وتأسيس الجمهورية، أو يفكر فى هدم الدين أو فصل الكنيسة عن الدولة أو إقامة المحاكم الاستثنائية التى أساءت إلى العدالة، أو بناء المقصلة التى أطاحت برؤوس الألوف من أعداء الثورة وأبنائها على السواء.

على العكس من ذلك كان كل ما فهمه قادة هذه الحركة وصفوة رجالها وقتئذ أن الثورة حركة منظمة ، يتحكم العقل فى حوادثها بصورة تجعل من الممكن تداعى الحوادث فى ترتيب طبيعى سلمى دون عنف أو غلو، ولكن الأحداث صارت تخضع تدريجيا لتأثير الظروف والأشخاص

الذين ركبوا الثورة وتضافروا على صبغها بتلك الصبغة الدموية التى لطخت تاريخها، وجعلتها أشبه بسفينة انكسر شراعها فأصبحت ألعوبة للعواصف والأنواء تعصف بها كيف شاءت، أو قل أصبحت جسدا بلا عقل.. فانطلقت الغرائز من كمائنها تتصارع وتتقاتل، وصارت الساحة الفرنسية مثل ساحة السيارات الكهربائية فى دور الملاهى.. تتلاطم وتتخبط.. والناس فى حيرة من أمرهم بين مذعور خائف.. وعابث ساخر..

ومن المفارقات الغريبة أن الثورة فى مرحلة الإرهاب جعلت من (العقل) بديلا عن (الدين) ولكنها اتخذت من الإجراءات الشاذة، ما يتنافى مع أبسط قواعد العقل والمنطق، حتى قال أحد المؤرخين الظرفاء «إن حكومة الإرهاب اختارت لفرنسا دين العقل بعد أن أبعدت العقل عن جميع أعمالها وتصرفاتها..».

وإلا.. فما ظنك بقانون المشبوهين الذى يسمح للسلطة الثورية بأن تأخذ الناس بالشبهة، وتحاكمهم على نياتهم لا على أعمالهم ـ تماما كما كانت محاكم التفتيش تفعل قبل ألف عام ـ فيرسل المتهمون إلى ساحة الإعدام لا لذنب اقترفوه فى حق الثورة، بل لمجرد أنهم كانوا ـ فى رأى المرشدين والمخبرين ـ غير متشدقين بمبادىء الثورة، ولايبدو منهم ماينم عن ولائهم لزعمائها الذين تحولوا إلى آلهة..

وما ظنك بمحكمة الثورة التى تحولت إلى سيرك هزلى، نجومه رجال جلسوا على منصة القضاء ولبسوا مسوح العدل ولكنهم كانوا فى الحقيقة سفاحين لا تساوى حياة الإنسان لديهم أكثر من حياة الذباب والبعوض..

كانت هذه المحكمة عند بداية تشكيلها لايسمح لها بالنظر فى جرائم الخيانة أو التآمر إلا بناء على قرار اتهام تتحدد فيه التهمة وقرائنها وأدلة ثبوتها.. ولكنها فى مرحلة الإرهاب الثورى تحولت إلى مطبخ أو طابونة

لإعداد (الخبزة) وهو الاسم الذى كان يطلق على القطيع الذى تعده المحكمة فى الليل لدفعه إلى المقصلة فى الصباح . وتخلصت هذه المحكمة من أبسط الإجراءات القضائية، حتى مجرد الشكل لم يعد له وجود أو احترام، وأصبح فى استطاعة المدعى العام فوكيه تونفيل ـ أن يأمر بالقبض على أى شخص بمجرد تلقيه إشارة من السلطات الثورية ، بل بمجرد تلقيه بلاغا من أحد المواطنين ضد أى مواطن آخر. . !! فيجد المسكين نفسه فجأة أمام محكمة صورية ولايسمح له بالدفاع عن نفسه أو بتوكيل محام للدفاع عنه. . أو باستدعاء شهود لنفى الاتهام الذى وقع عليه، وكانت هذه المحكمة التى ترفع شعار العدالة زورا وكذبا لاتعطى لنفسها الوقت الكافى حتى لقراءة الأوراق. . أو التحقق من شخصية المقبوض عليهم، فتأمر المحكمة بإرسال الجميع إلى المقصلة حتى لايفلت المجرم من (العدالة) . . ولتستريح المحكمة من مشقة التأكد من شخصية المطلوب، وتبيان الحق من الباطل . .

وإذاتعطفت المحكمة وسمحت لأحد المحامين بالدفاع عن متهم، ففى أضيق الحدود وبأقل الكلمات، وذات مرة ترافع أحد المحامين بحرارة عن متهم، فما كان من عدالة المحكمة إلا أن أرسلت المحامى إلى المقصلة، وكانت حجتها فى ذلك أن الدفاع بحرارة عن متهم لاينبغى أن يصدر عن وطنى مخلص للثورة!!

وبلغ من استهانة هذه المحكمة الثورية بمبادئ العدالة أنها اعتبرت إصرار المتهم على الدفاع عن نفسه هو أكبر دليل على إدانته وإجرامه(!!) ولو أنه (أى المتهم) كان بريئا كما يزعم لفوض أمره إلى «عدالة» المحكمة. . وجعلت السلطة الثورية من هذا المبدأ الخطير قانونا تشهره المحكمة فى حق المتهم المسكين إذا لمست منه إصرارا على تفنيد التهم الموجهة إليه. . ومضت حكومة الإرهاب فى تشريع الإرهاب، وإعداد القوانين التى تسمح للمحكمة الثورية بإرسال أكبر

عدد من الناس إلى المقصلة بلا محاكمة . . أو عن طريق محاكمة صورية . . وكان أحد هذه التشريعات قانون « استنارة المحكمة» وبمقتضاه يحق للمحكمة الاستغناء عن سماع شهود النفى وإقفال باب المرافعات قبل نهايتها بحجة أن المحكمة قد « استنارت» ولم تعد فى حاجة إلى مزيد من المعلومات . . وكانت المحكمة تعلن « استنارتها» فى كل قضية تلمس فيها رجحان كفة البراءة على كفة الاتهام . . وكأنها تضن أن يفلت برىء من سكين المقصلة . .

ويحوى تاريخ الثورة الكثير من المخازى التى ارتكبها رجال كانوا ـ للأسف ـ فى ماضيهم من رجال القضاء . . ولكنهم باعوا ضمائرهم للسلطة الجديدة ، وسخروا علمهم وسمعتهم فى خدمة الإرهاب تحت ستار زائف من العدل والقانون .

● مهازل القضـاء الثـورى :

حدث أن قبضت السلطات على سيدة اسمها فوكيير بتهمة الاعتداء على بعض عساكر البلدية ، فسيقت إلى محكمة الثورة بعد أن أغلقوا بيتها ووضعوا عليه الأختام ، ووقفت المرأة أمام المحكمة فقالت إن الواقعة مختلقة من أساسها ، لأنها كانت غائبة عن باريس فى اليوم الذى يدعى النائب العام ـ فوكيه ـ أن الواقعة حدثت فيه ، وقالت إن فى بيتها ورقة تثبت صدقها ، وطلبت من المحكمة أن توفد أحد موظفيها ليفض الأختام ويأتى بهذه الورقة التى تكفى وحدها لإثبات براءتها ، ووافقت المحكمة وأوفدت أحد محضرى المحكمة لأداء هذه المهمة ، وذهب الرجل وعثر على الورقة ، فلما عاد وجد المحكمة قد أصدرت الحكم بإعدام السيدة ، ولم تتريث حتى تستحضر المتهمة دليل براءتها ، أو إنهم نسوا أنهم كلفوا أحد الموظفين بإحضار الورقة . . وفقدت المرأة حياتها بسبب العجلة . . أو بسبب النسيان .

ووقف رجل اسمه « كارث» متهما مع طائفة من الناس لم يرهم من قبل، فلم توجه المحكمة إليه سوى سؤال واحد هو: ألم تكن وكيل الأميرة (مارسان) فى إدارة أعمالها؟ وهل لم تعاون أولاد هذه الأميرة على الهجرة من فرنسا؟ فأجاب نعم كنت فى خدمة سيدة تدعى مدام مورسان ـ وليست مارسان ـ ولم تكن هذه السيدة من الأميرات، ولم يكن لها أولاد حتى يقال إنى عاونتهم على الهجرة. . وكان القضاة فى شغل عن إجابة المتهم فحكموا عليه بالإعدام. . ونفذ الحكم فى نفس اليوم. .

وذات مرة قدموا إلى محكمة الثورة سيدة ضمن زمرة من المواطنين بتهمة التآمر على سلامة الجمهورية ، ووقف النائب العام ـ فوكيه تانفيل ـ يطلب من المحكمة تطبيق حكم الإعدام عليهم أجمعين، وهنا نهض المحامى الموكل بالدفاع عن المرأة، وظن أنه سيلقى على المحكمة مفاجأة لم يتبينها المحققون وهى أن موكلته خرساء . . صماء. . بكماء . . فكيف تتآمر؟؟ وكان المفروض أن يعتذر النائب العام ويطلب إسقاط الاتهام عن المرأة. . ولكنه لج فى عتوه وغروره. . وتبجحه، وقال للمحكمة : إن الناس يتآمرون برؤوسهم لا بألسنتهم . . ونحن نطلب رأس المتهمة لا لسانها. . ! ! واستجابت المحكمة لطلب المدعى العام. . وأرسلت المرأة إلى المقصلة . .

وأمرت السلطات الثورية بإلقاء القبض على سيدة وزوجها وأمها بتهمة التفوه بألفاظ اعتبرت ماسة بكرامة أباطرة الثورة، ولكن السلطات أخطأت فى التنفيذ، وبدلا من أن تقبض على الزوج البالغ من العمر ٥٢ عاما قبضت على شقيق الزوجة ، وكان صبيا لا يتجاوز عمره ١٧ سنة، ولم يقرأ النائب العام أوراق القضية، بل لم ينظروا إلى وجوه المتهمين ليتبينوا أن الصبى الماثل أمامهم لايمكن أن يكون هو الزوج المتهم، ولا أن يكون زوج هذه المرأة التى تقترب من الخمسين، وقد حكمت المحكمة عليهم جميعا بالإعدام.

● طـريـق الإرهـاب :

لعل هذه النماذج من فظائع القضاء الثورى تكفى للتدليل على الدرك الذى انحدرت إليه الثورة فى عهد الإرهاب، وهو العهد الذى أصبحت فيه المقصلة هى العقل المحرك لجهاز الثورة، بعد أن فقد قادة الثورة عقولهم، وبدأ عجزهم فى إدارة شئون الدولة، أو سد حاجة الأفواه الجائعة التى كانت لاتكف عن الصياح فى طلب الخبز. كانت الجماهير الجائعة التى ذاقت الظلم والفقر والهوان فى العهد البائد تتطلع إلى اليوم الذى تجنى فيه ثمار صبرها وتأييدها للعهد الجديد. ولكن الحكام الجدد لم تكن لديهم الخبرة الكافية فى إدارة شئون الدولة وظنوا أن القوة التى هدموا بها النظام القديم قادرة على بناء النظام الجديد . . ولا مفر من استخدام العنف مع العامة بنفس القدر الذى استخدم مع النبلاء ورجال الدين، خاصة بعد أن أصيبت الجماهير بالإحباط والفجيعة فى العهد الجديد، وانتشرت الثورات المضادة فى الأقاليم، كما أخذت الدول الأوروبية تتحالف وتستعد لغزو فرنسا انتقاما لمقتل الملك لويس السادس عشر وإعادة حكم البوربون وصد موجة الثورة التى هددتهم فى عقر دارهم.

وفى هذا المناخ المشحون بالتوتر فى الداخل والخارج تمكن المتطرفون (اليعاقبة) من الإطاحة بالمعتدلين (الجيروند) وساقوهم كالنعاج إلى المقصلة وظن اليعاقبة أن الجو قد خلا لهم فبدءوا بتعطيل الدستور وأقاموا سلطة دكتاتورية ممثلة فى لجنة (الخلاص العام) وقد ضمت رؤوس الإرهاب « دانتون وهيبير وشوميت وروبسبير» . . ومن ورائها « كومون باريس» الذى أصبح أكبر قوة قادرة على تحريك الغوغاء لحساب الإرهاب . وبدأت مرحلة التخبط فى تاريخ الثورة الفرنسية وإطلاق قوى الشر من عقالها بحجة الحفاظ على سلامة الثورة . .

وأرادت حكومة الإرهاب أن تعوض فشليها الإدارى والاقتصادى

بتحويل أنظار الناس عن قضاياهم المعيشية وإشغالهم بالجبهة الخارجية وأخذوا فى تجييش الجيوش وإرسالها إلى الجبهة ثم اتجهوا إلى عقائد الناس فأصدروا قرارا بإلغاء جميع الأديان وحل كل الهيئات الدينية وإغلاق الأديرة والكنائس والمعابد وإعدام القسس والرهبان . .

وبدا كأن الثورة تتخلص من كل روابط الدين والأخلاق والنظام والقانون . . وترغم الناس على قبول أوضاع جديدة لم تكن تخطر على بالهم عندما أيدوا الثورة ، وبدأ الملل يتسرب إلى نفوس الجماهير بعد أن فجعت فى آمالها ، بل إن الملل من مشاهد الدماء بدأ يتسرب إلى بعض قادة الإرهاب أنفسهم مثل « دانتون» وصديقه الصحفى الشهير « كميل ديمولان» . . وانقسم قادة الإرهاب على أنفسهم وتسربت الشكوك إلى صفوفهم وكل منهم يضمر الانقضاض على زميله . . والشاطر هو الذى يسرع قبل الآخر . . وبدأت الثورة تأكل أبناءها بعد أن فرغت من التهام خصومها . . وامتدت النار لتحرق مضرميها . . وأمسك الطاغية «روبسبير» بيده عصا المحرقة ليقلب نيرانها حسب هواه ، ويدفع بإخوانه إلى الجحيم واحدا إثر الآخر، دون أن يملك أحدهم القدرة على الإفلات . . وكأن هؤلاء الوحوش قد تحولوا إلى فئران محبوسة فى مصيدة تحاصرهم النيران من كل مكان . .

فى البداية تعاون « روبسبير» مع صديقه « دانتون» للخلاص من زميليهما « هيبير وشوميت» عضوى لجنة الإنقاذ العام اللذين كانا وراء إعلان عبادة العقل ، وانساق « دانتون» وراء «روبسبير» ونفذ له رغبته دون أن يدرك أن الدور سيأتى عليه ، وسيق هيبر وشوميت إلى المقصلة . . وبدا كأن الجو خلا للصديقين . ولكن الوقت كان يسمح للشكوك بأن تعمل عملها حتى بين أشد الأصدقاء وفاء ، وعلى من يطمح فى البقاء أن يسارع بالقضاء على زميله . . ولكن مشكلة « دانتون» أن نفسه امتلأت قرفا من كثرة الدماء التى سالت تحت سكين المقصلة ، ولم يعد يطيق

صبرا على استفحال الإرهاب، وشاركه صديقه « ديمولان» هذا الشعور.

وشرع الاثنان يدعوان إلى التسامح والاعتدال والرحمة، وأخذ ديمولان - لسان الثورة اللاذع - يندد بالظلم والظالمين ويحذر من الغلو في سياسة البطش والتنكيل، ويشهر بأحكام المحكمة الثورية.

وكانت أي نغمة عن الاعتدال في نظر روبسبير جريمة عقوبتها القتل.. فاستصدر الطاغية من الحكومة الثورية قرار اتهام ضد الصديقين اللذين أصيبا بداء الاعتدال: ديمولان ودانتون.. فقبض عليهما في اليوم الأخير من مارس ١٧٩٤.. وأصيب الصديقان بالذهول وهما يقفان أمام المحكمة الثورية شأنهما شأن عشرات الألوف الذين ذهبوا ضحية طغيان شاركا في وضع أسسه بأيديهما. فجاء اليوم الذي يحترقان به. وقدما إلى المحاكمة ضمن ١٥ متهما بجريمة التآمر ضد الجمهورية.

● في أحضان المجد:

ووقف «دانتون» أمام المحكمة يفند الحجج الواهية التي لفقها له النائب العام « فوكيه»، ولكن متى كانت المحكمة تصغي إلى دفاع المتهم.. واتخذت المحكمة من إصرار دانتون على الدفاع عن نفسه دليلا على إدانته.. فاعترض دانتون كالبعير الهائج وصاح: إنكم لم تسمعوا شاهدا من شهود النفي، ولم تواجهونا بشاهد من شهود الإثبات، ولم تطلعونا على محاضر التحقيق حتى نعرف منها ما شهدوا به علينا أو لنا، فأي نوع من أنواع العدالة هذا الذي تطبقونه الآن؟!

وكان ديمولان قد أعد دفاعا مكتوبا في أوراق كثيرة، فمزق هذه الأوراق وكورها في يده وقذف بها رأس النائب العام فوكيه وصاح «كفى مجوناً أيها المجرمون» وجذب دانتون بعض أصحابه المتهمين من أيديهم وهم بالخروج، فسأله الرئيس: إلى أين يادانتون؟ فقال: إلى المقصلة يا وغد!

وأحببت كثيرا . . فلم يبق إلا أن نهجع الهجعة الأخيرة . . لنستريح»

وكتب ديمولان رسالته الأخيرة إلى زوجته وقال فيها : كنت أحسب أن اسمي يظل رمزا من رموز الثورة وعنوانا من عناوينها ، ولكن الطغاة يأبون إلا أن يجردوني من هذا الشرف ، ويمزقوا صحيفتي من كتاب الثورة ويجعلوا مني عدوا لها . . كنت أحلم بجمهورية عادلة كريمة يحبها كل الناس ويتفيئون ظلالها الرطبة الوارفة ، ولكني إذ كنت أدعو إلى هذه الجمهورية لم أكن أعرف أن الناس قساة وغلاظ إلى هذا الحد . . » .

وفي صباح اليوم التالي اصطفت العربات أمام باب السجن لنقل المحكوم عليهم إلى ساحة الإعدام ، فلما احتوتهم سارت بهم بين صفوف الجند والجماهير المحتشدة على طول الطريق ، وكان دانتون هادئا يمتزج بهدوئه نوع غريب من المرح . فكان يمازح أصحابه ويسخر من حزن صديقه فيليو ويحاول أن يسري هموم صديقه الآخر ديمولان ويسكته كلما حاول أن يخاطب الجماهير ويقول له : « هون عليك ولا تعبأ بهذه الغوغاء» .

ولما مر الموكب الرهيب أمام بيت الطاغية روبسبير نهض دانتون من مقعده وصاح صيحة هائلة دوت في الفضاء وقال : « أيها الطاغية اللعين لا تفرح فسوف تلحق بنا بعد حين» .

وقد صدقت نبوءته . .

ثم وقفت العربة عند المقصلة ونزل المتهمون وحاول أحدهم أن يعانق دانتون ولكن الحراس حالوا بينهما فصاح دانتون : « وهل تحولون دون أن تتعانق رؤوسنا في السلة بعد الممات؟ » وكان كلما صعد أحد رفاقه إلى النطع يودعه قائلا : « إلى اللقاء القريب أيها الصديق العزيز » فإذا جاء دوره وتأهب للصعود تولاه شيء من الوهن والخور وقال : « آه يازوجتي المحبوبة . . لن أراك بعد اليوم! » . ثم وجه الخطاب إلى الجلاد وقال : «أدر رأسي على الناس ليروه فليس لديهم من مثله كثير . . »

● **عظـات وعبـر :**

تلك كانت خاتمة دانتون . . وإنها لخاتمة ملأى بالعظات والعبر . . ولسوف اختتم هذا المشهد الدامى من مشاهد الثورة الفرنسية بهذه العبارة الرائعة للمؤرخ الأديب المرحوم حسن بك الشريف :

« لعمرى إذا كان من بين أولئك الوحوش الذين قاموا بالثورة الفرنسية وملكوا فيها رجال هم أقرب إلى القلوب من غيرهم، ففى طليعة هؤلاء الرجال دانتون ، ولئن أخذ التاريخ على هذا الرجل أنه كان أول الدعاة إلى حكم الإرهاب وإراقة الدماء، وإلى تثبيت قوائم الجمهورية فوق جبال من الجثث والأشلاء ، فقد وجب أن يعرف له المؤرخون أنه كان أيضا أول من هالته فظائع الإرهاب، وأول من راجع نفسه وعرف خطأه، فأرسل الصيحة داوية ـ ولو بعد فوات الأوان ـ تدعو إخوانه إلى الرحمة وأخذ الناس بالرفق وفى حدود القانون . . ولئن تقدم دانتون إلى التاريخ كما يتقدم زملاؤه، ويداه تقطران من دم عشرات الألوف من الأبرياء الذين راحوا ضحية تطرفه وغلوائه، فإنه يتقدم أيضا حاملا رأسه المقطوعة مكفرا به عما جنت يداه، وحاملا حسن القصد، وصدق التوبة شفيعين له فيما اجترح من الأوزار » .

ثم يقول حسن بك الشريف :

وهكذا قدر على الذين أضرموا النار أن يكونوا لها حطبا، وعلى الذين قطعوا الجسر أن يجرفهم الطوفان، ولقد ظل الطوفان يعلو ويندفع ويأخذ فى طريقه كل من يصادفه حتى ليبتلع الرجعيين والمعتدلين، ثم يعود فيبتلع المتطرفين واليعاقبة وعلى رأسهم روبسبير وفوكيه تانفيل . . وسانجوست وكوتون . . ثم يعود فيبتلع قضاة المحكمة الثورية ومحكميها وجلاديها ومعهم الدكتور جيوتان مخترع المقصلة التى سميت باسمه «الجيوتين» .

ولعل أعجب ما يدعو إلى التأمل والاعتبار فى تلك الثورة الفرنسية الكبرى أنها بدأت بفظائعها ومنكراتها لتخلص فرنسا من حكم الفرد الذى كان اسمه الملك لويس السادس عشر، وانتهت بعد كل هذه الفظائع والمنكرات إلى خضوع فرنسا لحكم الفرد الذى صار اسمه القنصل بونابرت ثم الإمبراطور « نابليون» .

الدكتاتورية البيضاء

لماذا نهتم بدراسة سير العظماء والنبلاء والمصلحين، ونهمل دراسة حياة الطغاة والمتجبرين والمفسدين فى الأرض!! لقد أفاض القرآن الكريم فى ذكر قصص الأنبياء والرسل ودعاة الحق والخير والفضيلة.. لقمان الحكيم وامرأة فرعون التى قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة، والرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول يا قوم اتبعوا المرسلين، وفتية الكهف الذين اعتزلوا الشرك فزادهم الله هدى ونشر لهم ربهم من رحمته عوضا عن الزمن الذى ولى من أعمارهم وهم رقود، ولكن.. إلى جانب هؤلاء الأخيار الاتقياء لم يهمل القرآن ذكر إبليس وفرعون وهامان وأبى لهب وامرأته حمالة الحطب وامرأة نوح وامرأة لوط والنمرود الذى تجرأ على الله فقال: أنا أحيى وأميت..

ونحن نحب العظمة والنبل والشرف والفضيلة.. ونضعها مكانا عاليا نصبو إليه ونسعد به، ونحترم كل من يتحلى بهذه القيم السامية ونجعل منه قدوة نتأسى بها.. ولكننا نتجنب الشر والفساد والجبروت.. وننفر من سيرة الأشرار والطغاة.. ربما خوفا من أن تتحول سيرهم إلى نماذج بطولية.. وهذا خطأ فى التفكير. لأن دراسة الشر تشجع على النفور منه.. تماما كما تلسع النار أصبع الطفل فيعرف ضررها ويتحاشاها إلى الأبد.. وكما يتذوق الإنسان طعم الحنظل ويعرف مرارته فلا يقربه أبدا.. وقديما قال الصوفية: من ذاق عرف..

إنه شىء مفيد حقا أن نسبر غور شخصية الطاغية لنعرف الظروف

التى جعلته يتحول من كائن إنسانى مفطور على النبل والطهر إلى وحش.. أو هو أقرب إلى الوحش.. يبطش.. ويستبد.. ويستهين بالحرمات.. لو درسنا حياة الطاغية فسوف نضع أيدينا على مفتاح شخصيته.. كيف عاش طفولته.. هل قضى طفولة سوية فى أحضان أبوين عطوفين.. أم كانت طفولته جافة قاسية كالبئر التى جف نبعها.. هل تذوق فى صباه طعم الحب والعطف والحنان.. أم عاش محروما من هذه اللمسات الرقراقة.. هل كان يعطف على الحيوانات الأليفة.. أم كان يخنقها ويتلذذ بتعذيبها.. هل عرف فى شبابه معنى الحب أم عاش منبوذا فاشلا عاجزا عن اكتساب عواطف المرأة.. ماذا كان يقرأ فى شبابه.. وماهى هواياته.

إن كل هذه المعلومات ـ رغم بساطتها وسذاجتها ـ إلا أنها تلقى الضوء على المراحل الأولى من حياة الطاغية، وتساعدنا فى تتبع المنحنى الشخصى له، وتضع أيدينا على المنابع الأولى التى شكلت حياته، فالحرمان من الأمومة قد يكون سببا.. والفشل العاطفى قد يكون سببا.. الفقر قد يكون سببا.. والخواء الروحى والدينى يدفع الإنسان إلى الاستهانة بالقيم العليا التى يتمسك بها سواد الناس، ويعتبرها الطاغية ضربا من الدجل والخرافة، والخواء العاطفى قد يدفعه إلى النقمة على كل ماهو جميل فى الحياة، والإحساس القديم بالدونية والوضاعة يدفع الطاغية إلى الانتقام من كل ماهو شريف ونبيل. وهدم ذوى الهامات العالية حتى يكون الناس سواء فى الوضاعة.

أجل.. ليتنا ندرس حياة الطغاة فى شتى مستوياتهم، سواء كانوا حكاما يتحكمون فى رقاب العباد، أو جلادين أشبه بالمخالب التى تؤمر فتنفذ بلا تفكير أو تردد، ومن واجبنا أن نعرف الظروف النفسية والتربوية لهؤلاء الجلادين وكيف تحولوا إلى وحوش كاسرة.. وكيف سمحت لهم ضمائرهم بتمزيق الأجساد بالكرابيج، وهتك الأعراض، وإهدار آدمية

خصم هو فى آخر الأمر إنسان يتعذب ويتألم ويستصرخ ولا من مجيب . . كيف كان يعود هؤلاء الجلادون إلى بيوتهم آخر النهار ويواجهون أولادهم وزوجاتهم بعد يوم حافل بالنشاط الإجرامى هل كانوا يتذوقون النوم عندما يضعون رؤوسهم على الوسائد . . أم كانت أشباح ضحاياهم تؤرقهم وتزلزل كيانهم . هل كانت لهم ضمائر تحاسب وتعاقب وتؤنب . . أم إن ضمائرهم ماتت كما مات كل شىء جميل فى حياتهم .

إن دراسة من هذا النوع تجعلنا نضع أيدينا على بذرة الطغيان التى سرعان ماتكبر وتتفرع وتتحول إلى وحش سرطانى يتحلل من القوانين والشرائع والأخلاق والأعراف والتقاليد . . ويصنع لنفسه قانونا خاصا ، يجعل من الظلم عدلا . . ومن العدوان حقا . . ومن القهر فضيلة . . انظر إلى تاريخ الطاغية تجده يبيح لنفسه إبادة الخصوم حتى بعد أن يلقوا سلاحهم ويصبحوا فى يديه أسرى . . والعجيب أن المجتمعات الحديثة وضعت القوانين التى تحمى الأسرى وهم أمانة فى أيدى أعدائهم . . ولكنها لم تستطع حماية المواطن الذى يقع فى يد الطاغية . لأن الطاغية يرى فى القهر شكلا من أشكال السيادة . . وبعضا من حق الفتح الذى كانت تمارسه الجيوش المنتصرة فى العصور الغابرة فتبيح لنفسها بمقتضى حق الفتح ـ نهب البيوت وهتك الأعراض وسبى الأحرار . . وقد تستغرق أعمال النهب والسلب أياما . . ولا تتوقف إلا بإشارة من الفاتح المغرور يصدرها بعد أن تكون النسور قد شبعت من الفتك والنهب والسلب . . وثملت من دماء المقهورين .

● إرادة الطـاغية :

وتلك هى نظرة الطاغية إلى خصومه حين يستفرد بهم فيستبيح دماءهم وأعراضهم وأموالهم . . وتلك هى نظرته إلى رعيته حين تكون هذه الرعية ذليلة ضعيفة متخاذلة مغلوبة على أمرها . . عندئذ تكون

إرادته هى الحق الذى لا يأتيه الباطل . . فلا رد لمشيئته . . ولا معقب على حكمه . . لأن المستبد الطاغية يتصور أن إرادته أسمى من كل الإرادات وأن كلمته أقدس الكلمات . . وأن عبقريته تجب كافة عقول الناس الذين يحكمهم . . وأن ذكاءه يعلو ذكاء الأمة جميعا . .

انظر إلى هذه الصورة القوية التى قدمها المفكر الجليل عبد الرحمن الكواكبى فى مطلع هذا القرن عن شخصية المستبد الطاغية :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه لابشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس ، ويسدها عن النطق بالحق ، أو مطالبتها به . .

ثم يقول فى كلمات حاسمة جامعة مانعة :

● **المستبد عدو الحق . . وعدو الحرية وقاتلها .**

والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل وتتملق ، وعلى الرعية أن تدرك ذلك ، فتعرف مقامها عنده ، هل خلقت خادمة له ، أو هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه . »

ولنا فى ذلك عبرة بالأمة الفرنسية التى استسلمت لسيف الطغيان حينا من الدهر ، واستنامت لإرهاب الثوار الذين ركبوا موجة الثورة التى قامت أصلا لمقاومة الظلم وإقامة العدل ، ولكنها قننت الظلم وأطاحت بالعدل ، وأسلمت زمامها لزمرة من السفاحين أباحوا الدماء والحرمات والأعراض والأموال باسم الحرية . . وسرعان ما أفاق الفرنسيون حين أدركوا عمق الهاوية التى ينحدرون إليها فى عهد الإرهاب الأسود . . فانتفضوا من سباتهم واجتثوا رأس الإرهاب ـ روبسبير ـ بعد أن أطاح

بكل الرؤوس . . ولم يبق على رأس الدولة غيره . . يحرك رأسه يمينا فترتعد فرائص النواب . . أو يحركها يسارا فترجف قلوب أعوانه هلعا أن تطيح بها سكين المقصلة .

● أغرب رجال التاريخ :

ولنا وقفة طويلة مع هذه الشخصية الغريبة التى يعتبرها مؤرخنا الأديب حسن بك الشريف أغرب رجال الثورة الفرنسية طرا . . وأعقدهم شخصية . . وأعصاهم على الفهم والتحليل ، إن لم يكن أغرب رجل عرفه التاريخ . . فهو لايزال سرا مغلقا ، وسرا مستعصيا ، ذلك الرجل الهائل الذى أراق من الدماء ما أراق ، وأزهق من الأرواح ما أزهق ، وهو هادىء النفس مرتاح الضمير ، لايدفعه إلى ذلك حقد ولاجشع ، ولا يأخذه فى ذلك إشفاق ولا ورع .

يقول الشريف : كان روبسبير شديد الكبرياء ، شديد التعالى ، مفرطا فى تقديس ذاته ، يود لو يرى الناس فى عصمته عصمة الرسل ، وفى كماله كمال الآلهة ، وكان يؤمن بالفضيلة ويريدها أساسا للجمهورية الفرنسية الوليدة ، وينصب نفسه ممثلا أعلى للفضائل الإنسانية ، يدعو الحاكمين والمحكومين إلى الأخذ عنه والاقتداء به .

وإذا كانوا قد خلعوا عليه لقب « المعصوم » فلأنه كان حقا ـ كما شهد له المؤرخون ـ فوق متناول الفتنة أو الإغراء وماظنك برجل عاش طاهر الذيل ، نظيف اليدين ، عفيفا لم يعرف عنه أنه صبا إلى امرأة ، أو استحل مالا من مصدر مريب ، ويتزايد تقدير المؤرخين لنزاهته كلما تذكروا أن الفساد فى عصره كان قد ساد الذمم ، وطغى على الأخلاق .

كان روبسبير يحتقر المال حتى ليأنف أن تمسه يداه ، وفطر على كراهية النساء حتى لتتحمل نفسه كل شىء إلا أن يرى امرأة تتدخل فى الشئون

العامة، أو تقحم نفسها فى المسائل السياسية وأمور الأحزاب، ولقد تعقب بحقده النساء اللاتى أردن أن يكون لهن شأن فى قيادة الرأى، أو فى توجيه سياسة الهيئات، ولقد غالى بنفسه عرفانه لقيمتها فصانها عن صحبة الناس، ورفعها فوق المستوى الاجتماعى الذى عاش فيه، فلم يختلط بالشعب، ولم يجار الزعماء فى التقرب إلى الدهماء يلبس لباسهم الحقير، ولم يصطفِ من صحابه سوى الفتى (سان جوست) لأنه كتب إليه يوما : « أنت يامن لا أعرفك إلا بآياتك كما لا أعرف الله إلا بآلائه» . ولم يصطنع أعوانا إلا (ماراه) لأنه أسماه « المعصوم» و(كوتون) لأنه خطب مرة فقال : إن روبسبيير هو العبقرى النزيه الذى لا ترقى إليه الغواية، والوطنى العظيم الذى يضىء الجمهورية بفضائله.

ولقد انتهى الرجل إلى أن حسب نفسه المختار من العناية الإلهية لتطهير المجتمع من أدران الرذيلة، والمرسل من السماء برسالة يؤديها فى هذا العالم، وهى إقامة حكم الفضيلة فيه، فبات يعتقد أنه يمثل الفضائل السياسية والمدنية كلها، وأن من خاصمه فقد خاصم الحرية وخاصم الفضيلة، وخاصم الجمهورية وسائر المعانى الإنسانية الرفيعة التى جاء ليرفع منارها وليدعو الناس إليها.

ولما كان يعلم أن الرذيلة متأصلة فى المجتمع حتى ليتعذر استئصالها بالمثل التى تضرب، أو بالقوانين العادية، لم ير غير الطغيان، وسيلة لمكافحتها ودرء شرورها على أن يكون هذا الطغيان هو الآخر فاضلا ونزيها ولايتأثر بالأغراض، ولايعمل إلا للصالح العام، وقال فى ذلك قولته الشهيرة: « نحن لانريد الطغيان لذاته.. وإنما نريده دعامة للجمهورية الصالحة» .

فلتكن الفضيلة إذن قاعدة الحكم، ولتكن الجمهورية الصالحة هى نظام الحكم، وليكن الطغيان النزيه هو وسيلة الحكم، فإذا فهمت هذه المعادلة الغريبة واستطعت أن توفق بين أركانها فقد فهمت روبسبيير

واستطعت أن توفق بين مبادئه وسياسته، ولكى تقوم الجمهورية الصالحة على أسس قوية من الفضيلة يجب أن يكون الطغيان عاما وشاملا يسوى بين الجميع ولا يفرق بين الحاكمين والمحكومين، وأن يكون منظما بحيث يكفل تحقيق الغاية التى وجد لتحقيقها، وبحيث يحمى نفسه من طغيان الرذيلة عليه وأن يهيمن على تنفيذه رجل كامل لا ترقى الريبة إلى عصمته، ولايتسامح فيما يمس مصالح الوطن وشئون البلاد: وهذا الرجل هو روبسبيير.

ومن ثم كان تأليف لجنة الإنقاذ العام بمثابة هيئة تنفيذية، وتشكيل المحكمة الثورية بمثابة هيئة قضائية، ومن ثم أيضا كان سن قانون المشبوهين الذى يأخذ الناس بالشبهات والنيات لا بالجرائم والأعمال، وسن قانون المرافعات الذى يحرم المتهمين حق الدفاع عن أنفسهم ويقصيهم عن قاعة الجلسات عند محاكمتهم، ويعفى القضاة من سماع الشهود ومن قراءة الأوراق، وسن قانون الاتهام الذى يجيز القبض على نواب الأمة بقرار من لجنة الإنقاذ وبغير استئذان المجلس الوطنى فى رفع الحصانة النيابية عنهم، وسن قانون الأحكام الذى يجيز الحكم على المتهمين فى قضية واحدة حكما يشمل الجميع دفعة واحدة بصرف النظر عن مبلغ نصيب كل منهم فى التهمه العامة.

وكأنما كان جنون الكبرياء يصور لروبسبيير أن ليس لشخصه أعداء ولا أصدقاء، وإنه لايدين لأحد بفضل، ولايضمر لإنسان ضغينة، وإن جميع مواطنيه مدينون له بنعمة وجوده بينهم، فمن والاه منهم فقد والى الفضيلة وكفاه ذلك مجدا وشرفا، ومن عاداه فقد عادى الفضيلة واستحق الموت. لذلك لا نعجب إذا رأيناه يضرب أصدقاءه بنفس القسوة التى يضرب بها أعداءه ولا تأخذه فى أحدهم رحمة ولايشفع لهم لديه أى اعتبار.

● سيف الإرهاب :

لقد أطاح الطاغية بكل الرؤوس التى رأى فيها عقبة فى طريق إقامة الدكتاتورية الفاضلة، ولم يبق أمامه سوى المجلس الوطنى (البرلمان) وقد بدأت تفوح منه رائحة الخوف من أن يمتد إليه سيف الإرهاب. وأصبح الأمر صراعا على البقاء بين الدكتاتور الرهيب، وأعضاء المجلس الوطنى، وسارع روبسبيير فاستصدر قانونا بإلغاء الحصانة البرلمانية حتى يتسنى له ذبح من يتجرأ على معارضته من النواب بعيدا عن الحصانة، وبات النواب يتحسسون رقابهم ويتوقعون قطعها بين لحظة وأخرى، فكان بعضهم يهجرون بيوتهم ويقضون الليل فى المخابئ أو الحدائق العامة.. ولكن الخوف تحول فى نفوس النواب إلى قوة.. لعلها حلاوة الروح التى جعلتهم يزمعون الوقوف فى وجه الطاغية.. وليموتوا وهم وقوف إذا لم يكن من الموت بد.. واتفقت إرادة مائة نائب على مطالبة المجلس بإعادة النظر فى قانون إلغاء الحصانة البرلمانية، ولكن روبسبيير نظر إليهم نظرة أفزعتهم فتراجعوا.. ثم هددهم بأنه لايفعل شيئا إلا بإرادة الشعب.. وإن الشعب على استعداد لسحقهم.. بيد أن الشعب كان قد اكتشف أكذوبة الدكتاتور، وإنه فعل كل هذه الآثام مدفوعا بشهوته الدموية، وإن الشعب برىء من هذه المزاعم، وأحس المجلس الوطنى بهذه الروح الجديدة تسرى فى الشعب، وأنس فى نفوس الناس مقتا للإرهاب، فاشتد عود النواب وقر عزمهم على مقاومة الطاغية مهما كان الثمن.

وعندما اتحدت إرادة النواب - ومن خلفهم إرادة الأمة - على نبذ الإرهاب - كان القدر يرسم النهاية المحتومة لهذا الطاغية الذى أصبح اسمه علما على الإرهاب فلنتوقف قليلا لنلتقط أنفاسنا قبل رؤية المشهد الرهيب.. مشهد الطاغية وهو يتقدم نحو المقصلة ليتذوق من نفس الكأس التى أذاقها لآلاف الضحايا والأبرياء.

مصرع كبير الطغاة

الشعوب قد تغفل عن مفاسد الدكتاتورية بعض الوقت، فتسكت عنها وتسلم قيادها للدكتاتور وتسير من ورائه مغمضة العين، وهى تعزف لحن المجد والخلود والعظمة والغرور.. ولكنها فى لحظة من لحظات الانبهار الذاتى تكتشف عمق الهاوية التى تسير إليها، فتفيق من سكرتها وتكافح من أجل استرداد إرادتها الحرة، ولا يتصور الطاغية أن يفلت الصيد من شباكه فيزداد عتوا وصلفا.. وفى هذه المرحلة الختامية تدخل الأمة فى صراع البقاء مع الطاغية الذى يتحول إلى وحش مفترس.. ولكن الأمة تستجمع شجاعتها فتفتك به.. ثم تكتشف أن الوحش المصور لم يكن سوى نمر من ورق.. وهذا ما حدث للأمة الفرنسية مع كبير الطغاة روبسبيير الذى أطاح بكل الرؤوس وجعل من فرنسا مسلخا رهيبا حتى بلغت أحكام الإعدام التى نفذت خلال الأسابيع الستة الأخيرة من حكمة المشئوم ١٣٧٦ حكما، وفى الليلة الأخيرة من عمره كانت السجون الفرنسية تضم بين جدرانها ٩٥٠٠ رهينة تنتظر المصير الأسود على حد المقصلة، وكان إصدار قانون إلغاء الحصانة البرلمانية هو القشة التى قصمت ظهر الطاغية، فقد دب الهلع فى نفوس النواب وأدركوا أنهم أمام طريق من اثنين لا ثالث لهما.. فإما أن يجتثوا رأس الإرهاب فتكتب لهم النجاة.. وإما أن يتملكهم الخوف فيساقوا إلى المقصلة كالنعاج.. وشهدت قاعة البرلمان الفرنسى المشهد الأخير من حياة كبير الطغاة الذى لطخ تاريخ الثورة الفرنسية بالدم والعار..

وإليك تفاصيل هذا المشهد الدامى الذى سجلته أقلام المؤرخين عبرة لمن يريد أن يعتبر.

فى السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٤ ارتقى روبسبيير منبر المجلس الوطنى وألقى خطابا مسهبا شكا فيه إلى النواب ماتعانيه الحرية من آثار السعايات الخفية التى يسعاها الدساسون والمنافقون، وحاول أن يبرئ نفسه من تهمة الطغيان ملقيا مسئولية سياسة الإرهاب على المتطرفين من ممثلى الأمة. وقرر أن الهيئات العليا الثلاث ـ وهى المجلس الوطنى ولجنة الإنقاذ ولجنة الأمن العام ـ تضم كثيرا من عناصر الشغب وهواة الدسائس والفتن. وإن أوجب الواجبات وأولاها بالتقديم إنما هو «تطهير» المجلس الوطنى نفسه وتركيز جميع السلطات فى يديه ليصبح المسيطر الأعلى على شئون البلاد. وقال : « قد باتت النفوس الشريفة تعاف هذه الحال ولا تطيق الصبر عليها، فيجب الضرب على كل الأيدى العابثة وسحق جميع الرؤوس المجرمة التى تدبر فى الخفاء مكائدها للحرية والجمهورية»، وأخذته العزة بالإثم فصاح : « أيها المواطنون. لقد خلقت لأقاوم الإجرام لا لأحكم المجرمين»

عندئذ سرت فى النواب قشعريرة الخوف، وما إن سمعوا قوله « تطهير المجلس وتطهير اللجان» حتى أدرك الكثيرون منهم أنهم معنيون بالذات وأن عملية التطهير سوف تتناولهم ، ولاح أمام أعينهم بريق سكين المقصلة ولمحوا شبح الموت يرفرف فوق رؤوسهم بمنجله الرهيب، فانطلق زعماء المتطرفين الذين ألقى عليهم الزعيم مسئولية سياسة الإرهاب وفى طليعتهم فوشيه وكولو ديربوا وماراه وتاليان وفريرون وبيلو فارين ـ يوحدون صفوف خصوم الطاغية ويزيلون مابينهم من الخلاف، ويوفقون بين المطالبين بثأر دانتون والمطالبين بثأر ايبير، ويذكون فى نفوس الجميع نار الحقد على العدو المشترك ويصورون لكل واحد مدى الخطر الذى يتهدده ويؤكدون له أنه لامحالة هالك إذا لم يهلك روبسبيير.

ولقد أفلح أولئك الموتورون فى بث الذعر فى القلوب وإثارة غريزة البقاء فى النفوس وتحريك الأحقاد فى الصدور ، فلما ألهبوا الهمم الفاترة وشحذوا العزائم المنحلة وأيقظوا القوى الخائرة صار المجلس يغلى كأنه القدر فوق النار الحامية ، وتحفز الأعضاء للهجوم مؤثرين أن يموتوا كراما مجاهدين على أن يذهبوا إلى النطع كالسائمة أذلة صاغرين .

ووقف أحدهم ، وهو النائب كامبون ، وكان روبسبيير قد أشار إليه بقوله :

« أصحاب الأموال الذين يسيلون الدمع أمامكم إشفاقا على الشعب وهم يرتشفون دمه فى نهم ولذة» ـ وقف هذا النائب المهدد فى حياته وصاح : إذا لم يكن لى بد من الموت فلا أقل من أن أصارح فرنسا بما فى نفسى : « إن فى هذه الهيئة رجلا واحدا هو الذى يشل إرادتها ويعطل مشيئتها وهذا الرجل هو روبسبيير» .

واستولت على الأعضاء رعدة شديدة عندما هوت تلك الكلمات من شفتى النائب الجرىء وتحولت جميع الأنظار إلى روبسبيير لترى ماسيكون من أمره ، فلما لم يتحرك ولم يقل شيئا تشجع الآخرون وارتقى النائب بيلو فارين المنبر وألقى خطابا عنيفا عرض فيه بالطاغية أيما تعريض وختمه بصيحة هائلة تنم عما فى نفسه من حقد وغل فقال : « كفى رياء ومداجاة أيها المواطنون ، وهلموا ننزع القناع عن وجه المستبد العاتى فإنه لخير لنا أن يقتلنا ويتخذ من أجسادنا أرائك يعتليها ، من أن نتشيع بالصمت لهذا الطاغية الطماع» .

وانهالت الاتهامات على روبسبيير من كل صوب ، ولكنه صمد لها مستهينا أو واثقا أن هذا المجلس الذى طالما أحنى الرأس أمامه استكانة وصغارا ، وانقاد لرغباته كارها أو مختارا ، لايستطيع اليوم أن يثور عليه ثورة جدية أو أن يصارحه بعداء خطير .

وغادر قاعة الاجتماع إمعانا فى احتقار خصومه، وذهب قبيل المساء إلى نادى اليعاقبة فقوبل فيه بأروع مظاهر الحفاوة والتكريم، وألقى على شيعته خطابا رشق فيه أعداءه بسهام مسمومة وقال : « إن هذه الخطبة التى تسمعونها الآن قد تكون خطبة الوداع، لأن الخونة يأتمرون بى ليقتلونى. ولكنى إذا سقطت تحت ضربات أولئك الأثمة المجرمين فإنما أسقط راضيا عن نفسى موقنا أننى أديت الواجب على نحو الوطن والفضيلة والحرية وهى الأقانيم الثلاثة التى ما عشت إلا لها والتى يطيب لى أن أموت فى سبيلها».

ولقد استمع اليعاقبة إلى هذه الخطبة فى صمت وخشوع، فلما نزل روبسبيير من المنبر تلقوه فى أحضانهم وهتفوا له هتافا كبيرا ونادوا بسقوط أعدائه. وإذ أبصروا بينهم اثنين من هؤلاء الأعداء وهما بيلو فارين وكولوديربوا، انهالوا عليهما سبا ولكما وطردوهما من النادى فى غلظة وقسوة وتوعدوهما بسوء المصير .

وارتاحت نفس روبسبيير بعد هذا الحادث واطمأن قلبه وأيقن أن له من نادى اليعاقبة ومن الهيئة البلدية أكبر عون على المجلس الوطنى ، فبات هادئ البال غير متوقع ما يخبئه له الغد من ويل عظيم .

وفى اليوم التالى (٢٧ يوليو) انعقد المجلس الوطنى بعد ليلة قضاها فوشيه وتاليان وبيلو فارين وكولوديربوا فى تدبير الحملة على الطاغية وإحكام روابط الوفاق بين مختلف الأحزاب.

وكان كولوديربوا فى كرسى الرياسة وقد ارتقى سانجوست صنيعة روبسبيير المنبر وبدأ يتلو خطابا كان قد أعده من قبل وحدد فيه التهم المعزوة إلى خصوم زعيمه. ولكنه لم يكد ينطق بالجمل الأولى حتى قفز تاليان إلى المنبر وصاح : « لقد شبعنا من هذا الكلام المبهم والتلويح الغامض، فهل لروبسبيير أو للذين يتكلمون باسمه أن يصارحونا بحقيقة مايريدون؟ » .

وقابل المجلس هذه الصيحة بالتصفيق المتكرر وبعلامات الموافقة والاستحسان، ووقف بيلوفارين وقال : « إن روبسبير يريد موتنا ونحن لانخاف الموت، ولكننا نريد أن نموت شرفاء . لقد خلقنا أحرارا وجعلنا مهمتنا فى الحياة نشر مبادئ الحرية وتدعيم قوائمها فكيف نرضى أن يستعبدنا مغرور متعطش إلى الدماء ؟ . . إن أولئك المنافقين الذين يتمشدقون فوق هذا المنبر بكلمات العدل والفضيلة والحرية هم أشد أعدائها بأسا عليها، وإنهم ليدوسونها بأقدامهم كلما تعارضت مع شهواتهم أو كلما أمنوا الفضيحة والعقاب . إنى أقرر أمامكم أيها المواطنون أن عضوا من أعضاء لجنة الإنقاذ العام قد اختلس مائة وأربعة عشر ألف جنيه، وقد حاولت استصدار مرسوم بالقبض عليه فلم ينقذه من يد العدالة إلا ذلك المتباكى على القانون والعدالة : روبسبير.

عندئذ استشاط روبسبير غضبا وهب من مقعده وهرع إلى المنبر، ولكن عاصفة من الهتافات العدائية استوقفته فى وسط الممشى، فالتفت يمنة ويسرة متفقدا أولئك الأنصار والأصدقاء والأولياء الذين طالما أيدوه وناصروه، لم يسمع إلا أصواتا تنادى بسقوطه وأيادى منقبضة تمتد أمام وجهه متهددة متوعدة .

وأبى الرئيس كولو ديربوا أن يمنحه حق الكلام، فوقف فى مكانه جامدا يتميز من الغيظ ويحاول أن يملك هياج نفسه فلا يستطيع .

وكان تاليان قد تسلم كتابا من زوجته السجينة تقول له فيه إن الغد قد تحدد موعدا لإعدامها وتعاتبه على تقصيره فى إنقاذها وترميه بالجبن والنذالة ثم تتضرع إليه أن يخلصها من الهول الذى تعانيه . وكان الرجل يحب زوجته الجميلة حبا يصور له الحياة بغيرها مستحيلة . وقد زوده الحب بشجاعة لم يعرفها فى نفسه من قبل فاستعان بهذه الشجاعة دفعة واحدة وقال : « نريد أن نمزق القناع عن بعض الوجوه القبيحة فيتبينها الشعب على حقيقتها المروعة البشعة ولن نبرح هذه القاعة حتى نهتك

ستر الطغاة الذين ينكلون بالأمة ويسفكون دمها ويفرضون شهواتهم على ممثليها قانونا ودستورا. فإذا لم يأنس المجلس فى نفسه الشجاعة التى تجعله يقرر القبض عليهم ومحاكمتهم ، فهذا خنجر أتيت به لأغمده فى صدر الطاغية الأكبر فأنقذ من شروره البلاد والعباد » .

واستل الخطيب من جيبه خنجرا براقا غرسه بضربة قوية فى خشب المنبر، فدوت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف ، وتصاعدت الأصوات من كل ناحية صائحة : « يسقط المستبد يسقط الطاغية الملعون» .

ووقف روبسبير كالمشدوه يصيح بكلمات متقطعة فتضيع بين الجلبة والضوضاء، وينظر يمنة ويسرة كأنه يستجدى كلمة أو حركة تأييد فتصرف عنه العيون ولايقابله أنصار الأمس إلا ببسمات الشماتة والاستنكار. فلما يئس من نجدة هؤلاء الأنصار وانقطع رجاؤه فى تأييدهم أجال الطرف بين المستقلين وناداهم؛ إنى أوجه الكلام إلى كل رجل شريف فى هذا المكان، أوجهه إليكم أنتم أيها الرجال الأفاضل الأطهار. . وضاعت بقية عبارته بين عاصفة الأصوات الهاتفة : « يسقط روبسبير إلى المقصلة ياروبسبير. . » . ورفع الزعيم يده مرة أخرى مستأذنا فى الكلام فأشاح عنه الرئيس بوجهه قائلا : « لن أسمح لك به قبل أن يأتى دورك» فبهت ولبث واجما تكاد عيناه تخرجان من محجريهما وانعقد لسانه أو كاد ، وحاول أن يتكلم فتحشرج صدره واعتراه سعال عصبى شديد أدمع مقلتيه . وعندئذ وقف النائب جارنييه وأشار إليه بأصبعه إشارة مسرحية وقال : « إن دم دانتون هو الذى يخنقك الآن ياروبسبير» وماسمع روبسبير هذه الكلمات حتى مثل أمام ناظريه رأس الزعيم الفقيد فتراجع خطوة إلى الوراء ورفع يده كأنه يزيح بها شبح الرجل الهائل الذى ذهب ضحية لمطامعه، وقال : « إذا فأنتم تثارون اليوم لدانتون!» فأجابته أصوات من شتى نواحى المجلس هاتفة : «يسقط القاتل . . يسقط الطاغية . . إلى المقصلة ياشارب الدماء » وفى حركة

من تلك الحركات التى يدفع إليها الناس ، هجم روبسبيير على منصة الرياسة ولوح بقبضة يده إلى كولوديربوا مهددا وصاح : « أما بعد . فيا رئيس المجرمين ألن تسمح لى بالكلام؟» قوبلت ثورته بصيحات الحنق والاستنكار ونهض النائب لوشيه وقال :

« أقترح على المجلس تقرير القبض على مكسيمليان روبسبيير» . وعززه نائب آخر اسمه لوازوه فقال : « لقد كان روبسبيير لعنة على الجمهورية ونقمة على مواطنيه فاقترح أيضا تقرير اتهامه ومحاكمته » .

وأمر الرئيس بجمع الآراء وأسقط فى يد روبسبيير عندما أبصر أحزاب اليمين وأحزاب اليسار وأحزاب الوسط تقف معلنة موافقتها على الاقتراحين ، فتضعضعت عزيمته وخارت قواه وارتمى على أقرب مقعد إليه لا يبدئ ولا يعيد .

وكان له أخ فى المجلس اسمه أوجستان عز عليه أن يفترق عنه فنهض وقال : « إنى أعتبر نفسى شريكا لأخى الأكبر فى كل فضائله ، فبما دمتم قد اعتبرتم تلك الفضائل جريمة فأنا شريكه فيها وأرجو أن تقرروا القبض على أنا أيضا» .

ثم نهض النائب لوباه ، صديق روبسبيير ، وقال : «إنكم ترتكبون الآن جريمة بشعة لا أستطيع أن أشارككم فيها بصمتى ، فأطلب أن تعدونى شريكا للأخوين » .

ولم يستطع المجلس فى هياجه أن يقدر مبلغ ما فى هاتين العاطفتين ، عاطفة الأخوة وعاطفة الصداقة ، من كرم ونبالة ، فأصدر قراره بالقبض على أوجستان ولوباه .

وكأنما أبى أعداء روبسبيير إلا أن يغتنموا فرصة استسلام المجلس لمشيئتهم ليتخلصوا من كافة خصومهم ، فقدم بيلو فارين اقتراحا آخر بالقبض على جميع أعوان الطاغية وفى مقدمتهم سانجوست وكوتون

ودوماس رئيس المحكمة الثورية، والجنرال هانريو قائد جيشها، فصدر القرار بالقبض عليه وعلى ثلاثة وثلاثين من أنصارهم وقوبل هذا القرار بالتصفيق الحاد والصيحات الهاتفة « لتحيى الحرية ولتحيى الجمهورية» .

وأشار الرئيس إلى الحراس فانتزعوا النواب الخمسة من مقاعدهم واقتادوهم إلى الخارج تمهيدا لزجهم فى السجون، وأمر برفع الجلسة على أن تعود إلى الانعقاد بعد ساعتين، ظانا أن المجلس الوطنى قد أحرز بتلك القرارات انتصارا حاسما لم يبق بعده إلا أن يلقى المتهمون حتفهم فى ساحة الإعدام . ولكن فاته أن يحسب حساب هيئة البلدية الموالية لروبسبيير.

كانت هيئة البلدية منعقدة عندما تناهت إليها قرارات المجلس الوطنى، فهاج هائجها وعظم عليها الأمر وقررت الثورة على هذا المجلس ودعوة الشعب إلى حمل السلاح لتخليص زعمائه، وأرسلت رسلها إلى السجون مزودين بأوامر تقضى بالإفراج عن المقبوض عليهم جميعا. وانتشر بعض أعضائها فى المدينة يدقون أجراس الكنائس إيذانا بالخطر العام، فهرع الأهالى من مساكنهم إلى الشوارع والطرقات يتساءلون عن النبأ العظيم وهم بين متردد لايريد أن يصدق وحائر لا يدرى ما ينبغى أن يفعل .

وهنا نقف بالقارئ هنيهة نتدبر فيها عظمة الأقدار فنرى كيف تترتب أخطر النتائج على أحقر المقدمات وكيف تتغير وجهة التاريخ ويتبدل مجرى الأحداث لأتفه الأشياء وأصغر الأسباب .

فلو أن الأقدار أرادات أن تنقذ روبسبيير وأصحابه فى ذلك اليوم العصيب، لوضع الجنرال هانريو نفسه على رأس جيشه ولقاد هذا الجيش وحاصر به المجلس الوطنى وقبض على تاليه وفوشيه وكولو ديربوا وبقية

تلك الشرذمة التى أثارت العاصفة فى وجه الطاغية، ولعاد روبسبيير بعد ذلك مظفرا منصورا ليقصد المجلس ويطهره من أعدائه ومشاغبيه وليفرض إرادته على سائر الأعضاء الذين يكونون قد تلقوا درسا يعلمهم أى منقلب ينقلبه كل من ثار على الزعامة والزعيم.

ولكن هانريو كان مخمورا ذلك اليوم، وكانت الخمر قد أذهبت صوابه، فبدلا من أن يبادر بجيشه إلى تأديب المجلس الثائر، أخرج غدارته من جيبه وانطلق كالمجنون يجوب الأزقة والطرقات شاهرا هذا السلاح المخيف فى يده ليدعو به الناس إلى النجدة والمعونة وليحضهم على نصرة الزعماء المضطهدين، فكان الناس يظنون أن خبلا قد أصابه ويولون منه فرارا . وهكذا ضاعت الفرصة الثمينة وأمضت هيئة البلدية ساعتين طويلتين فى البحث عن قائد جيشها، وهى لاتدرى أنه هائم على وجهه فى الشوارع والدروب أشعث الشعر أغبر الوجه يضحك قوما ويخيف قوما آخرين .

وكأنما أرادت الأقدار أن تتضافر للقضاء على عهد الإرهاب فأبى روبسبيير أول الأمر أن يلحق بزملائه لينظم معهم وسائل المقاومة والدفاع، وظل مترددا وقتا طويلا حتى جاء هؤلاء الزملاء وحملوه غصبا إلى دار البلدية ولبثوا يقنعونه بوجوب إصدار منشور إلى الشعب يدعونه إلى حمل السلاح فى وجه المجلس الوطنى، ولبث روبسبيير فى تردده يفحص المسألة من ناحيتها القانونية ويناقش شرعية هذا المنشور والصفة التى تخوله حق توقيعه .

وكانت جموع الشعب قد تكاثرت حول دار البلدية هائجة مائجة تهتف وتصخب وتنتظر قرار الزعماء فلما طال بها الانتظار وأضجرها الوقوف بدأت تتسرب وتتبدد شيئا فشيئا حتى لم يبق منها إلا شراذم متفرقة هنا وهناك . وكان اليوم حارا قائظا اشتدت سمائه وتوهجت حرارته وقد أخذت السماء تتلبد بالغيم المربد ولم تلبث حتى أمطرت الأرض وابلا

عنيفا أخلى الميادين من بقايا تلك الجموع وترك هيئة البلدية تتداول الرأى بين جدران الدار بلا جيش يحميها أو شعب يؤيدها .

وفى تلك الأثناء كان المجلس الوطنى قد عاد إلى الانعقاد وأحيط خبرا بما حدث من إطلاق سراح المتهمين ومن ثورة هيئة البلدية فرأى أن يتدارك الأمر فى حزم وسرعة وأن يستفيد من تلكؤ خصومه ليضربهم الضربة القاضية قبل أن يشرعوا فى عمل شىء . . فأصدر أمره إلى الجنرال باراه ، أحد أعضائه ، بالسير على رأس الفرق التى ظلت موالية له ليأتى بالمتهمين وبأعضاء هيئة البلدية مصفدين . وأصدر فى الوقت ذاته قرارا بإهدار دمائهم وباعتبارهم غير مشمولين بحماية القانون .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة من الليل لما دهم باراه وجنوده دار البلدية واقتحموا أبوابها شاهرى السيوف والبنادق والمسدسات وكان الجدل لايزال على أشده بين روبسبيير وأصحابه حول النظريات الفقهية وشرعية المنشور عندما دنا منه جندى اسمه ميدا وأهاب به : « سلم نفسك ياخائن» فنظر إليه الطاغية شزرا وأجاب «إنما الخونة أنتم وسآمر بإعدامكم اليوم» وعندئذ تناول ميدا مسدسه وأفرغه فى وجه الزعيم فهشم فكه الأسفل فهوى من مقعده وهو يتلوى ويصيح .

وانتشر الجند فى الأروقة والغرف والردهات يبحثون عن الثائرين فيقبضون على بعضهم بغير مقاومة ويلتقطون البعض من تحت الأرائك وفى الزوايا المظلمة من الأقبية والسراديب . ولقد سمعوا دوى طلق نارى فذهبوا ليتبينوا مصدره فإذا النائب لوباه قد قتل نفسه برصاصة من غدارته ، وإذا روبسبيير الصغير يحاول الفرار قفزا من النافذة فيسقط وتنكسر ساقاه ، ثم إذا كوتون يزحف على بطنه متلمسا مخبأ يختبئ فيه ، فيقبضون عليهما ويكبلونهما بالحديد . أما سانجوست فلبث جاثما فوق مقعده ينظر إلى مايجرى حوله ولايحاول إفلاتا ولايبتغى نجاة فلما اقترب منه الجنود نهض وأسلم نفسه فى دعة وسكون . وحذا حذوه أعضاء الهيئة

البلدية فاستسلموا للقوة صاغرين. ولم تدق الساعة الثانية من الصباح حتى كان باراه يقود هذا القطيع الهائل إلى دار لجنة الإنقاذ العام.

وكانوا قد ضمدوا وجه روبسبيير وألقوه على منضدة ظل يعانى فوقها أشد الآلام وأبلغ الإهانات. فلقد التفت حوله جمهرة من أخلاط الناس لم تبق فى قاموس الشتم والسباب ومعجم الشماتة والتشفى كلمة إلا وجهتها إليه. وكان قد فقد وعيه أو كان يتظاهر بفقدان الوعى عسى أن يترفق به أولئك الأفظاظ القساة القلوب، ولكن أبى الله ألا أن يذوق الطاغية مرارة الهوان قبل أن يذوق مرارة الموت.

وقبيل المساء صدر حكم المحكمة الثورية بإعدام جميع المتهمين فوضعوا فوق العربات وسيقوا إلى ساحة الإعدام وظل روبسبيير ينظر إلى رفاقه وأصحابه ورؤوسهم تهوى إلى السلة بعد أن تحزها السكين فلما جاء دوره حملوه إلى المقصلة ونزعوا الرباط عن وجهه فصاح من فرط الألم صيحة هائلة، وأدار الجلاد اللولب فانحدر رأسه عن جسده وزهقت روحه محملة بأبشع الأوزار وأثقل الآثام.

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع ٩٦/١٦٣٥
ISBN 977-09-0318-3

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



